

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة



سايطر مكسيكية

تأليف

الدكتور أنور حاتم

سلسلة الأدب الغربي

الناشر
مكتبة أطلس

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

أساطير مكسيكية

تأليف

الدكتور أنور حاتم

الناشر
مكتبة أطلس

سلسلة الأدب الغربي

(٣)

دمشق ١٩٦٢

~~956.9~~
~~Un 23~~
~~3-4~~

956.9
Sy 23
3-4



هرنان كورتيس فاتح المكسيك



كاوتيموك Cuauhtémoc
آخر ملوك الأستيك



El Pipila الطاووس
احد ابطال ثورة التحرير

الشعب يشور على المتحررين



توطئة

بين تخوم غواتيمالا ، حيث تبدأ اميركا الوسطى ، وبين نهر (الريوغراندي) ، حيث حدود اميركا الشمالية ، ارض تطل غربا وشرقا على محيطي الاطلسي والهادي ، وهي الصلة بين العالم الانكلوساكسوني ، ودول الامريكتين الوسطى والجنوبية ، وهذه الارض التي لا تشبه لها بجمالها هي المكسيك . .

تحيط بالمكسيك هالة من السحر لما يزدحم على اديمها من زاهي الصور ، وعنيف الالوان ، وما يشع في سمائها من صافي الانوار ، وكان كل اقليم من اقاليمها مربع صغير من فسيفساء ، يرسم عليها اروع ما في الطبيعة من مناظر ، وفتن ، لها سواحل استوائية كثيفة الاشجار ، وجبال شامخة مكسوة بالثلوج ، وبراكين يرفرف فوقها ناضر الزهر ، واودية زمردية تتدفق من ارجائها ينابيع الحياة وتمتاز المكسيك بحضارات قديمة تعتبر ، اذا اضيفت اليها آثار شعب (الانكا) في البيرو ، اعرق الحضارات الاميركية كما تمتاز بتاريخ حديث زاخر بعظيم الاعمال ، والبطولات ، والعبر ، وبشعب ابي ضرب ابلغ الامثال في الجهاد ، والتضحية ، واستعذاب الاهوال، وركوب المنايا .

تبلغ مساحة المكسيك مايقارب المليون كيلو متر مربع ، وهي الدولة الاميركية اللاتينية الثالثة بمساحتها ، وينيف عدد سكانها

على الستة وثلاثين مليون نسمة ، وبذلك تكون الدولة الاولى الناطقة بالاسبانية في العالم . . . والمكسيك من اكثر الاقطار انتاجا للفضة ، والذهب ، والقصدير ، والنحاس ، والبتروول ، وعدد عديد من المعادن ، (مما اثار مطامع الدول في ماضي الايام) والقطن ، والسكر ، والقهوة والقنب ، والذرة ، وسائر الحبوب .

وتشترك المكسيك اشتراكا مشكورا في المجهود الذي تقوم به الشعوب ذات الارادة الطيبة لايجاد دنيا افضل ، ومجتمع اعدل ، وتعمل في سبيل تطور العلوم بكل جد وكد ، وقد غدت جامعاتها في طليعة المؤسسات العلمية الراقية ، وفنانوها اشهر فناني القارة الاميركية قاطبة ، واصحاب مدرسة ذات اثر عالمي . والمكسيك الحديثة هي قوة خيرة من قوى السلام ، ايدت في جميع المناسبات حق الشعوب بتقرير مصيرها ، وكفاح الامم في سبيل الاستقلال وقاومت بما لديها من وسائل ، الظلم والاستثمار الجائر ، والتفريق العنصري ، والعدوان داخل اراضيها وفي كل بقعة من بقاع الارض ، كما قاومت الدكتاتورية الهوجاء ، والنظم المخلة بحقوق الانسان ، ومشروعات سحق المواطن من قبل الدولة .

والمكسيك هي احدى جنات السياح ، وعلماء الانار ، والشعراء ، والكتاب ، ورجال السياسة ، تعقد في عاصمتها ومدنها الكبرى المؤتمرات الدولية وتنظم الندوات العالمية ، وتبرز فيها الى حيز الوجود مبادئ التجدد ، والانطلاق والشعب المكسيكي ، وعلى رأسه رئيسه الالهي الملهم ، السيد ادلفو لويس ماتيوس ، من اكثر الشعوب الاميركية محبة للعرب ، وتقديرا لعملهم في خدمة الحضارة ، ولرسالتهم التاريخية الكبرى ، ولنضالهم في سبيل الوحدة والعزة .

لذلك نتمنى ان يعقب هذا الكتاب كتب عديدة يضعها العرب عن هذا القطر الصديق ، وغايتنا هي ان نعرف المكسيك باساطيرها ، وقد كان من الممكن ايضا تعريفها بتقاليدها السياسية او الشعبية ، او بنشاطها الاقتصادي والاجتماعي ، او بفنونها الجميلة ، او بالعناصر القديمة التي تتألف منها شعوبها . . . ولقد اخترنا الاساطير لما نعرفه من الاهتمام الخاص الذي يعبره الشعب المكسيكي لاساطيره ، ويعتبرها هذا الشعب ركنا من ارکان حياته اليومية ، ومظهرا من مظاهر احساسه العام ، وعنصرا من عناصر ثقافته الوطنية .

يقال ان عبقرية الامم تنعكس في اساطيرها ، وقد تنطوي الاساطير على حقائق دامغة ، لانها رد فعل الضمير القومي على وقائع التاريخ ، وهي ترشد الى الشكل الذي تنطبع فيه الاحداث في روح الشعب الجماعية ، وبذلك تعطي اصدق الصور عن صفات الشعب ، وميزاته ، ومناقبه ، والشعوب كالافراد ، منها خلق بالجملة فكان كل واحد شبيها بالآخر لا يمتاز عنه بشيء كالسيارات التي تنتجها المعامل الكبرى من نفس النموذج ، ومنها من ينفرد بكيان خص به دون سواه . . . وللمكسيك ، بين شعوب اميركا ، شخصية ممتازة ، فريدة ، نشأت من طبيعته شعوبها الاصلية ، وحضاراتها ، ومن تاريخها ، واوضاعها الجغرافية ، والدفاع عن هذه الشخصية التي تمثل اعماق مافي الكيان البشري ، او الاجتماعي ، واجب على الافراد والشعوب .

ان الاساطير التي نقلناها الى العربية من بين الوف اخر ، هي شفاقة كالزجاج يرى من ورائها نفسية الشعب المكسيكي وانفعالاته امام الحداث ، واساليب تفكيره وادراكه للامور ، وتقديره لتطورات الزمن .

وقد كان امامنا طريقتان لجمع الاساطير . الطريقة الاولى ،
ويمكن ان تسمى الاختيار على أساس ((العرض)) ، هي ان ينظر
الى كل ولاية بصورة مستقلة ، وتتقى من اساطيرها اسطورة واحدة
او اكثر ، تمثل حياة هذه الولاية وتقاليدها ، واما الطريقة الثانية ،
فهي الاختيار على اساس ((العمق)) أي ان ينظر الى الشعب
المكسيكي بمجموعه ، كانه جسم واحد ، ويتقى لكل مرحلة من
مراحل تطوره القومي ، اسطورة تعبر عن هذا التطور ،
وتصوره ، وتبين مدى تجاوبه مع التطور العالمي ، وانه لمن المعلوم
بان كل حادث تاريخي يجري ، تطل من خلفه اسطوره كالظل يبقى
ملكا للخيال ، وينبوعا لمختلف الانواع من الابداع .. وقد اخترنا
الطريقة الثانية ، لا لانها الطريقة المثلى ، بل لانها تؤلف تمهيدا
لدراسة المكسيك من قبل قراء العربية .. بدأنا بالاساطير التي تبحث
في احوال الآلهة والابطال في العهد الهندية التي ماتزال محفوفة
بكثيف السحب ، والفموض ، وانتهينا في عهد الجنرال (لازارو
كرديناس) ، الذي لم يزل حيا ، يرزق ، يخدم بلاده ، ويدعم
قضايا الحرية والعدل في مختلف اقطار العالم ، والاساطير التي
يجدها القارئ في هذا الكتاب ترسم صورة الرجال الذين ساهموا
في خط تاريخ المكسيك عبر الاجيال ، مثال مکتروما ، وكوتيموك ،
وكورتيس ، والفارادو ، وهيد الفو ، وسانتانا ، وخوريس ،
ومكسيمليان ، وبانشوفيا ، وزابانا ، والجنرال كرديناس .. ومما
لا شك فيه ان لرجال التاريخ - كما لكل رجل - سرا يخلق في
نفسه منذ المهد ، ويرافقه مدى الحياة ليوارى معه في اللحد ، وان
هذا السر يحد من طاقة المؤرخ ويجعل مهمته على جانب كبير من
العسر ، اما الشاعر ، أي صانع الاساطير ، فالمجال افسح امامه
لسبر غور النفوس ، وقد يكتشف الخيال الخلاق ما يعجز عن

استجلانه البحث العلمي ، قال فيكتور هيفو في كتاب من كتبه بان
« هيرودوت يكتب التاريخ ، اما الاساطير فيصوغها هوميروس »
واخيرا نريد ان نقول كلمة عن النهج الذي سرنا عليه في وضع هذا
الكتاب :

١ - لقد آثرنا ان ننقل الاساطير عن النصوص الواردة باللغة
الاسبانية دون سواها ، حرصا منا على واجب الامانة ورغم
وجود كتب عديدة عن المكسيك باللغة الانكليزية والفرنسية .
وقد شكنا المكسيكيون مرارا من عدم تفهم الدول الغربية لشؤونهم ،
وقد حافظنا ، في تدوين الاساطير ، على الروح المكسيكية ، والطابع
الاصيل ، فوردت بكتابتنا في اغلب الاحيان على لسان متحدثين
من ابناء البلاد ، وبالعبارة التي اعتادوا ان يرووا فيها هذه
الاساطير .

٢ - في سرد القضايا التاريخية ، وعلاقة المكسيك بالدول
الكبرى ، وخاصة اسبانيا ، تقيدنا بالحقيقة تقيدا مطلقا ، ولم ندون
من الوقائع الا ما اجمعت على تسجيله المصادر الاسبانية والمكسيكية
معا ، تأييدا لما يجمع بين بلادنا وبين هذين البلدين الكريمين من
صلات الصداقة ، والثقافة ، والدم المشترك . . .

وكل ما نرجوه من هذا العمل هو خدمة الشعب العربي بالاسهام
في تعزيز علاقات المودة القائمة منذ القديم بينه وبين الشعب
المكسيكي . . .

عبد المكسيكيون الهنود ، كغيرهم من الشعوب القديمة ، قوى الطبيعة والكون ، اعرابا عن ضعفهم وعجزهم امام تلك القوى ، ونشدانا لخيراتها ، ودرءا لبطشها وقتكها . فكانوا يعتقدون وجود آلهة للانبات ، والخصب ، والغيث ، والافلاك ، والنجوم ، وللارض والسماء ، وللرياح والعواصف ، وللليل والنهار ، وللموت والحياة ، كل ذلك الى جانب ايمانهم بآله واحد ذي اقنومين ، هما (توناكاتيكتهتلي Tonacatecutli) الملقب بالسيد المعيل ، وبالرب القريب ، وزوجته (توناكاسيواتل Tonacacihuatl) الملقبة بالسيدة المعيلة . وقد البس المكسيكيون عقائدهم هذه اثوابا من الروايات والاساطير ، تلونت بالمع الالوان ، وتبهرجت بابهى الزخارف ، روايات واساطير خلدت على جدران هياكلهم وصروحهم ، وفي مختلف فنونهم الجميلة وخاصة منها النقش ، والرسم ، والشعر ، وكانت حافزا على السير بهم في مضمار العلوم الرياضية ، والطبيعية والفلكية الى ارفع ما وصلت اليه شعوب اميركا من درجات الرقي .

اخترنا من تلك الاساطير اسطورتين كونيتين عن سير الافلاك في اللانهاية ، اوحى بهما ايمان المكسيكيين الهنود بديانة الشمس او ديانة النور ، الاولى منهما تشيد بعظمة مشهد ميلاد الشمس الذي يتجدد كل يوم ، لينشر في الدنيا اسباب الطمأنينة ،

والتفأؤل ، وحب الحياة ، والثانية تنطوي على صور متعددة للنزاع القائم بين الشمس والقمر ، أي النور والظلام او الحق والباطل ، والحكمة الخفية التي قضت بتفوق الباطل على الحق لوقت لم تعين حدوده • واضفنا الى هاتين الاسطورتين اسطورة ثالثة عن الخليقة اثبتناها لشهرتها ، وللشعبية الخاصة التي تتمتع بها •

الشمس الخامسة

لقد مضى على الدنيا وقت كبير ، وهي محرومة من الشمس تحد من آفاقها أسوار ضخمة من السواد الحنديسي ، وهي تن من وطأة الليل ، وعبء كلكله ، وتسبح في اجواء مدلهمة من الظلام الحالك ، بعد ان تحطمت وزالت من الوجود اربع شمس ملعت على الارض ، وكانت المادة الاولى - أي الهيولى - من كل منها مركبة من أحد العناصر الاربعة التي يتألف منها الكون . لقد ظهرت ، عند فجر الخليقة ، شمس ، عنصرها الماء ، ففرقت في اليم ، وسط ضجيج المياه ، وعجيجها ، وثورة الامواج المتلاطمة وغضبة اللجج الصاخبة ، فانتتهت بذلك المرحلة الاولى من مراحل حياة هذا الكون ، ثم بزغت شمس عنصرها الهواء ، فاختطفتها شرادم جبارة من رياح عاصفة هوجاء ، اجتاحت الكواكب ، وهي تعزف انغام الموت والعدم . ثم خرجت بعد ذلك شمس عنصرها النار ، فسقط عليها وابل من الزوابع ، وتعالق وسالت عليها سيول من السنة البراكين الحمراء ولظاها ، فاحرقتها ، وجعلت منها جبالا من الرماد تبدها السموم . واخيرا برزت الى حيز الوجود شمس عنصرها الارض ، فتحطمت على السهول محدثة دويا هائلا اهتزت له النجوم ، وبذلك خطا هذا الكون

ثلاث مراحل اخر ، وبقيت الدنيا مغطاة بحلك الحندس القاتم ،
تنتظر ما سيكون من الآلهة العظام ، لخلق شمس خامسة تغدق
على الدنيا من فيض نورها ولألائها ومنعش دفئها ما يقبها عثرات
القضاء ، وضربات القدر .

وعزم الآلهة على التشاور في الامر ، فجمعوا شملهم ولموا
شعثهم ، وأموا سهول مدينة (تيوتيوكان Teotihuacan) المترامية
الاطراف ، للمذاكرة وبيان الرأي في اعادة النور الى الدنيا .

رأس هذا الاجتماع (كترالكوتل^(١)) اله الحياة ، ونجمة
الصبح ، بقناعه الذي يشبه رأس النمر ، وقد اتخذ صورة حية
ذات اجنحة ملونة ، وكان ايضا بين الحاضرين (هويتزيلهيكنتلي)
أي ، الطائر الغريد ، اله الحرب ، جالسا على عرشه اللازوردي ،
متقنعا بقناع من الذهب ، و (تزكتليوكا^(٢)) اله الظلمات ،
ذو الرجل الواحدة ، وكان قد وضع محل رجله اليسرى مرآة
تريه كل ما يمر على الارض من احداث ، وقد ستر وجهه بشبكة
من الخيوط السوداء والصفراء ، و (ميكلنتكتلي) اله الجحيم ،
وكان مرتديا رداء من عظام الموتى ، وقد ظهر بانف على شكل
مدينة من الحجر الصوان ، و (كواتليكو) ربة الارض ، بلباسها
الذي يتألف من حيات متضافرة ، وطوقها الذي صنع من

(١) سنتكلم عنه مطولا في اسطورة رواح الآلهة .

(٢) سنتكلم عنه ايضا في اسطورة رواح الآلهة .

الجماجم و (سيواكاتل) ، ربة المسوخ الحية ، و (سنتوتل)
اله الذرة ، بجسم ملون بالخضرة والصفرة ، وقبعة من السنابل
اليانعة •

كان الاجتماع على جانب منقطع النظير من الرهبة والهيبة ،
وكانت الاخطار تحقيق بالدنيا من كل جانب ، والمهالك تحف بها
من كل حذب وصوب • لقد رأى الآلهة ان الكون مقدم
على كارثة جامعة شاملة ستدفع به الى العدم ، فتنشق الافلاك
وتتبعر ذرات في الفضاء ، وتخذ جذوة النجوم وتذوب في
اللانهاية ، وتضمحل مظاهر الحياة ، ومصادر الاحساس ، وينابيع
الابداع ••

ولانقاذ الكون من هول الظلمة والموت ، وخطر الابدادة الذي
كان يترصده ، رأى الآلهة انه اصبح من المحتم عليهم ان يلجأوا
الى مراسم النار ، لتتحول روح من يرغب منهم في التضحية الى
شمس تضمن للكون البقاء ، وللمخلوقات رفاة العيش ، ولهم
دوام العزة والجبروت • وافر الآلهة مجتمعين ان التناحر الذي
ساد علاقاتهم ، في سالف الاحقاب ، هو الذي سار بالدنيا الى
هذه الحال ، وان كل من كان يغضب على خصم من امثاله ، كان
ينتقم من عباد ذلك الخصم ، ومن كل جزء من اجزاء الارض ،
وكل وجه من وجوه الطبيعة أوكل اليه رعايته ، وان كل حرب
اشتعلت بين الآلهة ، ادت الى جلب الكوارث على الارض •• اقر
الآلهة ذلك ، وشرع كل منهم ينظر الى الآخر ، ليرى من سيتبرع

بدمه ، ويتقدم الى الفداء ، فيقضي على شعلة الحياة في ذاته ،
ليغدق على الدنيا الضياء ، ساد بين الآلهة سكون عميق ، اشبه
بسكوت المقابر ، وعم الخجل صفوفهم ، التي كانت متراصة على
سهول مدينة (تيوتيوكان) •• ونهض واحد منهم اسمه
(تيكزيستكتل) ، وخرج من محله ، وسار الى الامام ، حتى
وصل الى ربوة صعد فوقها ، ورفع صوته قائلا ، وعلائم الكبرياء
بادية على مجياه :

— « أبشركم بانى سأخذ على عاتقي توفير نعمة النور

• للدينا » •

فاجابه الآلهة :

— حسنا تفعل •

وقال :

« وهل منكم من يريد ان يشاطرنى العمل » ؟

ظلوا جميعا ساكتين • ومضت فترة من الزمن دون ان يتقدم
احد ليجود بحياته فداء للعالمين • كانوا جميعا يخشون الموت ،
ويبدي كل منهم عذرا للتصل وسببا وعلة لابعاد فريضة التضحية
• عنه •

كذلك تصرف سائر الآلهة باستثناء صعلوك منهم ، اسمه
(ناتا هوازين) ، امتاز بتواضعه وهدوئه ، وكان يلتحف
بثوب ابيض اللون ، بسيط الخطوط ، تغلب عليه مظاهر الفقر ،

ولا تحليه زينة او حلية ، وقد عري من شعارات الالهية
والملك . وعندما صاح (تيكزيستكتل) لآخر مرة ، مصعرا خده ،
ثملا بجميل ثوبه الذي كان منسوجا من الابرسم وبديع قبعته
التي كانت مكسوة بالنفيس من الصدف والریش ، صاح لآخر
مرة :

— أليس بينكم من يقبل بان يموت ، ليضمن بدمه السماوي
الحياة لهذه الارض الدنيا ومن عليها ؟

حينئذ اجاب الاله الصعلوك (نانا هواتزين) :

— اني مستعد للموت ، فاسح لي بان اضحي بنفسي بدلا
منك .

مشى (نانا هواتزين) حتى الصف الاول من الآلهة بعناء
شديد ، وكان داء البرص قد اكل جسمه وامتص انسجته ،
ومضى يقول :

— نعم ، التمس من السادة الآلهة شرف الفداء .

فقال له (تيكزيستكتل) :

— من اين لك هذه الشجاعة ، ايها الاله العليل ؟ وهل تظن ان
في وسعك ان تعيد النور الى الدنيا ، بعد ان اوشكت جذوته ان
تخمد في جسدك وروحك ؟

فاجاب :

« اريد ان اموت عوضا عنك ، لادعك تنعم بوجود انت
اجدر مني به ، واحق مني بالنهوض بعبائه •

فقال (تيكزيستكتل) :

— لن اسمح لك بان تحل محلي كتماد للبشر ، فارجع الى
مكانك •

اصر الاله العليل على أن يموت واستفتي مجمع الآلهة في
ذلك ، وكان الجواب قبول تضحية الالهين في نفس الوقت ،
فيكون للعالم شمسان ، شمس ساطعة متألثة ، خيوطها من الماس
تضيء في النهار ، وشمس نورها لطيف وضياؤها ناعم منسوج
بخيوط من الذهب ، تبرز في الليل •••

بأشر الالهان واجبات الصيام والغفران ، تمهيدا لقهر النفس
وامانتها ، ونزعا ثيابهما عنهما ، وتلفح كل منهما بعباءة من الكتان
الرمادي • وكانت الطقوس تقضي بان تدوم تأدية تلك الواجبات
اربعة ايام ، يتلوها اغداق الهبات على معبد الحجر الاسود ، وقد
قدم (تيكزيستكتل) لهذا المعبد كل غال ونفيس ، من ريشات
فاخرة متعددة الالوان ، ومسابح من المرجان ، وكرات الزبرجد
ولوحات من الصدف • اما الاله (نانا هواتزين) ، فلم يكن في
حوزته الا تسع قصبات ، كل ثلاث منها ربطت في حزام ، وكرة من
التبن اليابس ، واشواك من الصبر كان قد غرسها في جسمه ،
فظهرت ملوثة بدمه ، وقد قدم كل ذلك بدوره الى المعبد •

وقام كل من الآلهين بتشييد هرم له ليكون هيكلًا للاضاحي ولم يزل السياح يزورون حتى الآن في مدينة (تيوتيو اكان) هذين الهرمين ، هرم القمر الذي انشأه الاله (تيكزيستكتل) ، وهرم الشمس الذي انشأه الاله (نانا هواتزين) وتسلم الالهان الكسوة التي سيقابلان فيها الموت ، وتتألف كسوة الاله الاول من كمية من الريش مرصعة بالياقوت ، واللؤلؤ ، والفيروز ، وملحفة سندسية ، ومخططة بخيوط من الابريز ، اما كسوة الاله العليل ، فكانت تتألف من قطنسوة عادية وثوب من ورق الشجر .

وعندما اقتربت الساعة ، جمع الآلهة في واد رحب فسيح كميات لاتحصى من الخشب ، وجذوع الاشجار الشظفة والهشيم ، والاعشاب ، والاغصان اليابسة ، والاوراد جعلوا منها لها اضرموه ، حتى اضطرم واتقد ، وتساعد منه الزفير ، والاجيج ، ثم اصطف الآلهة وفقا لمراكزهم على صفيين وكلفوا (تيكزيستكتل) و (نانا هواتزين) بان يقفا بالقرب من الوادي ، ليلقيا بنفسيهما في النار ، فبدا الجو رهيبا ، ولم يكن يسمع سوى زفير النار المتأججة ، وكان الدخان يرتفع كالاشباح نحو السماء ، ويعشى وجوه الآلهة باقنعة ارجوانية ، ترتجف بشدة ، ويرتعد لها الهواء ، وفجأة دوى صوت سيد الآلهة (كترالكوتل) داعيا (تيكزيستكتل) الى تحقيق ما تبرع به .

اقترب (تيكزيستكتل) من الوادي ، وانحنى ، فاستمر جبينه من السنة النار ، وشعر بحر قاتل يملأ جسمه ، وتردد ، ثم ابتعد

لكنه تذكر ما يقتضيه الشرف ، فتقدم مرة اخرى نحو الجحيم ،
محاوفا بلوغ الهدف الاسمى ، الا ان الجرأة قد خاتته في الثانية
الاخيرة ، ورجع خائفا الى الوراء . وهكذا قام باربع محاولات
كان نصيها الفشل والاختفاق ، فان الحياة عزيزة حتى على
الآلهة .

كان من المقرر ان يعتبر الاله متخلفا ، ويسقط الى حضيض
البشر ، اذا تردد اربع مرات ، الا ان الآلهة تذاكروا واتفقوا على
ان يمنحوه فرصة اخرى للقيام بالتضحية التي رشح نفسه لها ،
وارتفع من جديد صوت سيد الآلهة داعيا الاله العليل (ناناهواتزين)
الى انجاز عمله الفدائي ، فاغمض هذا الاخير عينيه ، واقتحم
النار ، غير مبال بالآلام ، وبهول المحنة . وعندما تلتقت النار
جسمه تأججت وزاد وقودها وسعيرها وارسلت الى السماء اذرعة
عديدة من اللهب ، تتخللها قرقة الحطب ، والاو تاد ، فدهش
الآلهة لشجاعة هذا الزميل العليل ، واعجبوا باقدامه اشد اعجاب ،
وهللوا ، واشادوا ببطولته ، بعد ان لحظوا ان حجم جسمه بدأ
يصغر ، ويتخذ شكل كرة حمراء لونها شبيه بشقائق النعمان .

شاهد (تيكزيستكتل) هذا المشهد ، فحجل لتردده خجلا
عميقا ، واثارت فيه النخوة ، واستولى عليه الحماس ، فالتقى
بنفسه في النار ، وتحول بدوره الى كرة حمراء ثانية ، وظهر نسر
اخترق بجناحيه اسوار الدخان ، وخر نازلا نحو اللهب ،
والتقط بمخالبه القوية الكرة الحمراء الاولى ، ووضعها عاليا في

الافق ، فكانت الشمس ، ولوحظ ان جناحي النسر قد احترقا في هذه المغامرة ، وكسبا لون الفحم ، لذلك لم يزل النسر ، حتى يومنا هذا أسود الجناحين .

وعندما مالت جذوة النار الى الافول ، ظهر نمر جبار بين الوقود ، وحمل الكرة الحمراء الثانية بفيه ، وصعد بها الى السماء حيث تركها معلقة بالفضاء ، فكان القمر . وكانت النار على وشك ان تخذ حين دخلها النمر ، لذلك لم يحترق جلده ، كما احترق جناحا النسر ، الا ان هذا الجلد قد اصابته في مواضع كثيرة آثار من اللظى ، احدثت عليه بقعات رمادية ، لم تزل مرتسمة حتى الآن على جسم النمر في القارة الاميركية .

هكذا انتهت المأساة الكونية العظمى ، ولم يكن الآلهة ليعلموا ما سيحصل بعد ذلك في العالم . واثر مضي فترة الانتظار ، بدأ الظلام يتبدد ، وينقشع ، واحمرت السماء ولمعت الارض ، ثم بدت في الافق من جهة الشرق كرة ذهبية ، هي روح (ناناهواتزين) تتحول الى الشمس ، بينما كانت روح (تيكزيستكتل) تلحق بها من بعيد ، متخذة شكل القمر .

انتشرت اجنحة النور في الافاق ، وتكبدت الشمس السماء ، فبدت السهول والحقول خضرا وزهرا ، وازدانت الجبال بارديتها البنفسجية ، وحليتها الوردية ، واهتزت الاشجار طربا وكبرياء ، وسطعت الانهار والسواقي غبطة وبهاء ، وغنت الطيور

اناشد السعادة ، وعمت الدنيا امواج من اليسر ، وسرت فيها
رعشة علوية من البشر •

فانحنى الآلهة اجلالا للشمس ، وارتفعت اصواتهم تلهج
بالشكر والاكبار ، وغدوا ينتظرون ما ستلقنهم من مشيئتها ، وما
ستملي عليهم من رغباتها •

ولكن الشمس باتت صامتة جامدة ، لم تبد حسا ولا حراكا ،
فاستأنفوا الصلوات ، وكرروا التضرع والدعاء ، واستمرت
الشمس في سكونها المطلق ، حتى فزع الآلهة ، واضحوا يخشون
على الكون سوء العاقبة ، وخطر الهلاك ، والدمار ، فتتالت
اجتماعاتهم ، وظهر لهم ان الحركة هي اساس الحياة ، ولكي
تدب الحركة في الشمس ، وجب عليهم ان يموتوا اجمعين ،
فتتحول ارواحهم الى قوة تسير بموجبها الافلاك والنيران ، حسب
قوانينها ووفق سنن الانطلاق والجاذبية ، واتفق الآلهة على ان
يقدموا ذاتهم قرايين لاعادة الحياة الى الكون ، فشرع سيدهم
(كيتزالكوتل) قوسه ووترها توتيرا ، وأخذ يرمي الآلهة
بالسهام ، حتى قضى عليهم وافناهم ، فعلت انفسهم نجوما الى
الفضاء •

ثم جاء دور (كتزالكوتل) ، فصعد الى جبل اشم ، ورفع
عينيه نحو النور وقال : « لقد ماتت الآلهة لتحقيق ما يصبو اليه
هذا الكون الخالد من نظام سرمدي ، واني ساحذو حذوهم ،
باذلا دمي في هذا السبيل ، الا اني سأعود مرة اخرى الى الدنيا ،

في حقبة من الاحقاب ، لتأسيس عهد جديد اعلم فيه الانسان
العلوم والفنون ، والمحبة والاخاء •

ثم اشعل الاله ججيمًا من النار القى نفسه فيه •

حينئذ استأنفت الشمس دورانها وكانت ضياء ، واستأنف
القمر سيره وكان نورا ، واحتلت النجوم مواقعها ، كل منها في
فلك يسبح ، واستقر اختلاف الليل والنهار ، وتعاقبت فصول
السنة بدقة عجيبة ، يحمل كل فصل منها آيات من الجمال والثراء
يمتاز به عن سواه ، وتبوأ الانسان عرش الخليفة ، عزيزا ، كريما ،
سيدا •

رواح الآلهة

— نعم ، ياسيدي ، نعم ! اريد ان اقول انا مصابون بداء
الاعجاب بأنفسنا ، وهو اكثر الامراض هولاء وقتكا . . . ويدفع
هذا الاعجاب خيالنا الى ان ينسج لغرورنا شخصية
وهمية لنا ، تتسق فيها جميع المزايا والمواهب ، شخصية اله ،
نعرف جيدا انها لا تتفق مع الواقع . . . نحن نريد ان نخدع
الناس بهذه الشخصية . . . ولكن ماذا يحصل ؟ يحصل ان نكون
نحن اول من ينخدع بها ، فنؤمن بها ، ونصدق الاوهام التي
تفرزها تلك الشخصية ، ثم نحاول ان نفرضها على القريب من
الناس ، فمنهم من يعتقد مانعقده بنفسنا ، او يتظاهر بذلك ،
فيكسب صداقتنا ومودتنا ، وقد يستعبدنا ويستغلنا في بعض
الاحيان شر استغلال ، ومنهم من يحاول ان يرشدنا الى حقيقتنا
فيفتح عيوننا على آفاتنا وعللنا التي لا تحصى ، فيثير حقننا
عليه ، عدونا من يعرفنا . . . واني لاقسم بالله العظيم اني سأقتل
بهذا المسدس ، كل من يكتشف ماخبأته نفسي من طبائع ،
فيكشفها لي . . .

— قل : من نعم الله علينا اننا اهل نقص واخطاء ، فهل يستطيع

احد من البشر ان يحمل في نفسه او في سواه اعباء الكمال ؟
— لنستمع الى اسطورة الاله (كترالكوتل) ، وقد وعدنا
الاخ الكريم بان يرويها لنا . .

— وبعد مئات الالوف من السنين عاد (كترالكوتل) الى
الدنيا بر^٤ بالوعد الذي قطعه في تلك الساعة الرهيبة التي القى
فيها بنفسه في جحيم من النار قربانا وفداء للبشر^(١) . عاد الى
الدنيا (كترالكوتل) ، سيد الآلهة ، ونجمة الصبح ، ورب
النور ، والنهار ، والهواء ، ورب المياه التي تساق قراحاً من
الجبال ، حاملة اسباب الهناء والرخاء ، ربّ الوحي المبدع ،
واسرار النمو ، والخصب . وترجمة (كترالكوتل) « الحية
ذات الريش الاخضر » ، وريش الطير (كتزل) ، ذائع الصيت
ورائع الالوان ، وقد نقشت صورة الاله في هذا الشكل على
جدران المعابد والاهرام ، تقديراً لما تنطوي عليه الحية ، من سامي
المعاني ، وجيل الرموز .

عاد (كترالكوتل) الى الدنيا ، في العام الذي يسميه شعب
(التولتيك) العام الاول للقصب واختار وادي مكسيكو ، ليكون
مرتعا لطفولته ، وكانت ولادته معجزة ، اذ لم يعرف له والد . اما
والدته ، فاسمها (شيما لاما) ، وقد لاقت في يوم من الايام
بالقرب من سريرها زمردة كبيرة تسطع سطوع الشمس ، كأن

(١) راجع الاسطورة الاولى .

رياض الجنة تنعكس على وجوهها المتعددة •

شاهدت (شيما لاما) هذه الزمردة واحست بصوت خفي يتصاعد من صدرها ويحضها على ابتلاع الحجرة الكريمة ، فابتلعته ، وكان من نتيجة ذلك انها حبلت وولدت غلاما نجيبا ، كان هو الاله (كنزالكوتل) •

نشأ هذا الغلام فاضلا ، وترعرع محبا للاطلاع والمعرفة ميالا الى العزلة ، منكبا على البحث ، والدرس والتأمل ، وعندما بلغ السابعة والعشرين من عمره ، جاء الى مدينة (تولا) ، واقام فيها ، و (تولا) هي عاصمة شعب (التولتيك) العريق ، الذي خلد تراثا حضاريا ضخما في العلوم والفنون ، وعمر المنطقة الوسطى من البلاد ، وبلغ اوج ازدهاره في الفترة التي تقع بين القرن التاسع وبين القرن الثاني عشر للمسيح ، ومدينة (تولا) لم تزل قائمة ، وهي تبعد ثمانين كيلو مترا عن مكسيكو ، وتضم آثارا رائعة من هياكل ، وتمائيل عمالقة ، ومصاطب ، واعمدة منقوشة ، وصروحا نحتت عليها صور نمور ، ونسور ، وآلهة ، وحيات •

في (تولا) ، تولى (كنزالكوتل) انشاء صومعة على رأس جبل من الواح خشبية ، وغصون اشجار ، واعشاب يابسة ، وقد اعتكف في هذه الصومعة ، يقضي الوقت صائما متعبدا ، مروضاً نفسه على الشدة ، والجرمان ، والعناء ، والالام ، فارضا على جسده اقسى العقوبات ، وقد تعود ان يجرح اذنيه باشواك من نبات « الصبر » •

انتشرت سمعة (كترالكوتل) في المنطقة ، وعظم شأنه ،
وكثر مريدوه ، وعندما توفي الملك (الهويتيماتيل) ، زاره شيوخ
(تولا) ، ووجهائها وعرضوا عليه ان يكون ملكا عليهم ، فقبل
واستلم زمام الحكم ، يحف به الجلال ، وتكلاه عناية الآلهة ،
وترعاه محبة السوقة ، وثقة السراة . لقد كان (كترالكوتل)
كسائر (التولتيك) اسمر البشرة ، الا ان نورا سماويا كان
يشع من وجناته وجسمه ، حتى ان الشعب كان يعتقد انه ايض
اللون ، وضاح المحيا ، ولم يكن هذا النور سوى نور الالهية
والفضيلة .

وقد قضي على الملك بان يكون رأسا للدولة ، وشاعرا ،
وكاهنا في نفس الوقت .

وأقام (كترالكوتل) كرأس للدولة ، ملكه على أسس قومية
من العدل واعتبار خير البلد وكرامته ممثلين في شخص كل مواطن
وكرامته ولكي يكون حرا طليقا ، ابعده عنه جميع من كانوا
يتظاهرون بمظاهر الانصار ، مؤثرا نصرة الشعب كاملا متحدا
على نصرة شزيمة من ابنائه .

كان (كترالكوتل) كشاعر يفقه ما لاصوات الطبيعة من معان
خفية ، ويدرك ما تتضمنه الوانها من خصائص ، وما تنطوي عليه
اشكالها من روائع ، وما يثيره نداؤها من امان وشعور ، كان
ينظر بعين الروح ، فيرى مالا يراه سائر الناس من تجانس بين

الاشياء ، وتقارب بين الصور ، وتناسب بين الصفات ، (وكان يحيا احلامه ويحلم حياته •) ؟

وقد تمكن (كترالكوتل) ككاهن من معرفة اسرار الكون والافلاك ، وعلم شعبه زراعة الذره ، والقطن ، وعدد عديد من الخضار ، ومئات من الاثمار والازهار لم تزل المكسيك مشهورة في انتاجها حتى يومنا هذا ، وكان اول من استخلص من نبات (الكاكاو) سائلا لذيذا منعشا ، اطلق عليه اسم (شوكولاتة) ، وامر بتشيد اهرام تخصص مصاطبها للاضاحي، وتحول سطوحها الى مراصد تراقب منها احوال النجوم ، ذلك لما للاطلاع على احوال النجوم من فوائد ، لادراك احوال النفس البشرية ، وقد توصل شعب (التولتيك) ، بتوجيه من ملكه ، الى ايجاد مقاييس للزمن ، ورسم اداة لتقويمه ، قدر بواسطتها على بيان الساعات ، والايام ، والفصول ، والسنين ، بدقة مطلقة . وتسجيل الاحداث الهامة لتخليد ذكرها ، والمحافظة على التقاليد التي تنشأ عنها على مرّ الدهور • وعمل (كترالكوتل) على احياء الفنون الجميلة ، لما لها من اثر في رفع مستوى الاخلاق ، وتوفير اسباب السعادة ، ولقّن (التولتيك) اساليب جديدة لاذابة الذهب والفضة ، وصياغتهما ، وترصيعها بالاحجار الكريمة ، والنقش على هذه الاحجار • ولعلّ أهم ما قام به هذا الملك العظيم من اصلاح هو منع الاضاحي البشرية منعاً باتاً ، والاستعاضة عنها بذبح الطيور والفراشات ، والضفادع •

وقد اثار هذا التدبير الخطير سخط (تزكتليوكا) الاله المتجبر ، الذي كان يتطلع بكثير من السخط والحسد الى نجاح (كترالكوتل) في ادارة (تولا) ومحبة الشعب له ، ومعنى (تزكتليوكا) المرأة العثنة ، أي المظلية بالدخان ، وكان يهيمن على معظم النجوم لما كان له من سلطان على الليل ، وسيطر على ممالك الظلمات ، ويسخر لمشيئته الكفار من المردة ، ويوجه حسب رغباته قوى الشر ، والاذى ، وكان يألم ويشمئز لكل خطوة يخطوها الانسان في مضمار الرقي والعلاء .

عرف عن (تزكتليوكا) انه يمشي على رجل واحدة ، ويحافظ على شبابه الدائم بفضل غذائه المستمر من دماء البشر ، وكان بنو الانسان يخشونه اكثر من سائر الآلهة ، ويضرعون اليه بصلواتهم ، لما اشتهر عنه من ضيق الصدر ، وقصر التفكير ، وما امتاز به من بطش ، ومن جبن ، وليس في الارض والسماء معتد غدار اظلم واقسى من الجبان . ولم يكن (تزكتليوكا) يقرب منه سوى السحرة ، والمجرمين ، وسفاكي الدماء ، وقد دعا اليه عددا منهم ، للتعاهم معهم على الاساليب التي يمكن اللجوء اليها للقضاء على (كترالكوتل) وابعاده من جديد عن سواحل الدنيا ، وآفاقها ، وبعد ان اقرت خلال مذاكرة طويلة هذه الاساليب ، وحددت ، وزعت مراحل تنفيذها على الحاضرين .

* * *

وفي ليلة من الليالي ، بينما كان (كترالكوتل) مضطجعا في صومعة جديدة ، كان قد بناها اثر اعتلائه العرش ، من الصدف الابيض ، ليتمكن فيها من التفرغ الى مناجاة الآلهة ، رأى فيما يرى النائم البدر التمام ينفصل عن قبة السماء ، ويسير نحوه ، مجتازا قسم الجبال المكسوة بالثلوج ، ثم افواه البراكين الملتهبة ، مارا بعد ذلك من بين الاشجار ، حتى بلغ نافذة الصومعة ، فدخل حجرته ، واستقر امامه شيها بمرآة يتصاعد منها الدخان .

التي (كترالكوتل) نظرة على هذه المرأة ، فشاهد صورته بشكل اقشعر منها بدنه . لقد شاهد هامة صلعاء ، ووجهها ضخما ، دميما كوجه مسخ ، ينفجر منه الدم ، وينبت الدمل من الخدود والجبين ، كان في هذه الصورة احول العينين ، واسع الجفون ، افطس الانف ، ضخم الشدق ، قصير العنق .

صاح الاله من ذعره صيحة رجفت من هولها الصومعة ، وبدا الصدف الذي كان ملصوقا على الجدران يتساقط كأوراق الخريف ، ثم نهض من رقاده واطل من النافذة ، فرأى السماء صافية ، هادئة ، والقمر في محله يضيء على الدنيا ، فيملؤها سلاما وانسا .

كان هذا الفصل الاول من المؤامرة التي نظمها (تزكتليوكا) مع انصاره السحرة لتحطيم (كترالكوتل) .

بكي (كئزالكوتل) سوء طالعه وقال :

كيف يجوز لرعيتي ان تحترمني وانا بهذا الشكل البشع ؟
« وكيف يمكن لشعبي ان يحبني ، اذا ظهرت امامه بهذا المظهر
الذي تنفر منه الانظار ؟ الا يعتبر قبح الوجه دليلا على قبح
الروح ؟ الم يدع كاتب ان الوجه هو صورة للروح ؟ وهل انا
من ذوي الارواح الشرسة ؟ الم يقل كاتب آخر ان قبح الخلقة
يولد ترددا في السلوك ، وعقدا في النفس ؟ فهل استطيع ان
احكم البلاد بهذا الوجه الدميم ؟ » •

مضت الايام ، واصبح حلم (كئزالكوتل) يجري في عروقه
مجري الدم ، وقد استولى على افكاره ، وشل اعماله ، وبعث
فيه اليأس والاضطراب ، ففقد ثقته بمواهبه ، واستسلم سراً
لوسواسه ، وانقاد طائعا لما كانت تنطوي عليه مناطق روحه
المظلمة من هواجس ، وغرائز ، ومحن • كان يمر عليه الزمن
رماديا ، ثقيلًا ، مانعا عنه راحة الليل ، وعزاء النهار •

وفي ذات يوم ، دخل عليه في قصره الملكي ثلاثة من الشباب
— كانوا من السحرة ومن اعوان اله الليل — وقالوا له انهم من
المعجبين بعدله ، والموالين لشخصه ، والمخلصين لعرشه ، وانهم
يحملون اليه هدية ثمينة ، هي مرآة من الفضة ، ولدى مشاهدة
وجهه فيها ، رأى الصورة التي كانت قد ظهرت له في الحلم ،
فطلب الى هؤلاء الشبان ان يبعدوا عنه المرآة ، واخذت الآلام

تفقد في الملك حدة الذكاء ، وحاسة النقد ، وصدق الفراسه ،
فتحدث اليهم قائلا :

— « اتعتقدون اني ساتمكن من المحافظة على حرمة رعيتي
لي ، عندما يشاهدني شعبي في هذا التكوين المخيف ؟ »
فاجاب احدهم منافقا :

— الجمال ، هو جمال الخلق ، والسجايا ، وليس لسيدي
الملك ان يخشى أي شيء مادام سيدي متحميا بنبل المقاصد ،
وجليل الاهداف . ان شعبك يحبك حبا جما ، ولن يتغير هذا
الحب ، وقد يشفق عليك ، وانه ليرجو الله ان يمن عليك
بالشفاء .

قال الملك :

— ان الشفقة ، يا ابنائي ، تقتل الحب قتلا ، وهي تنزل من
عال الى اسفل ، بينما يمتاز الحب بانه يستمر ابدا في صعود نحو
السماء . ومن يقبل الشفقة عليه ، يفقد هيئته .

فاجاب احد الزائرين الثلاثة مصرا على الغش والرياء :

— لقد قادنا اليك الحب ، والحب يهز الجبال ، ويصنع
العجائب ، نعم قادنا اليكم الحب ، كي نضمن لكم الشفاء ، وكل
ما نرجوه منكم هو منحنا ثقتكم .

فسر الملك سرورا جما وقال :

محضتكم ثقة لا حد لها ، ايها الرفاق •

حينئذ اخبر الشبان الملك بانهم يحملون اليه طعاما شهيتاً ،
مؤلفا من مزود ليس فيه الا الاعشاب العطرة ، ومعه هريسة
الذرة ، والبقول الاسود ، وسليقة من القرط والجرجر ، وان في
هذه الاطعمة الشفاء ، والصفاء ، وكان قد سبق للسحرة أن قرأوا
على هذه الاطعمة من عبارات السحر الخبيث ما يزعزع الارادة ،
ثم اضاف الشبان انهم قد جاؤوا الى الملك بخمر عجيبة نفيسة ،
من عصير « الصبر » ، اسمه « البولكه » (١) ، يزيل الآلام ،
والاوهام ، ويعيد الى القلب الراحة والسلام • وكانت هذه
الخمر في الحقيقة شراباً خطراً ، يبعث السكر ، ويفقد الرشد ،
ويطيح بالصواب • فقبل الملك ان يأكل من الاطعمة ، وأبى في
باديء الامر ان يشرب من تلك الخمر ، ولكن الشبان أصروا
عليه بما لديهم من وسائل الاغراء والاغواء ، وبما كانوا يحسنون
استعماله من صوغ الثناء ، والرجاء ، وتوسلوا اخيراً اليه بان
يغضض اصبعه في الشراب ، ثم يولجها في فمه ليذوقه ، ويتأكد
من لذيذ طعمه ، وطيب عييره •

فلم يلبث ان رغبتهم مع علمه بما ستجلب عليه هذه الخمر من اضرار ،
فاستطاب الشراب وتمطق •

كان (كترالكوتل) يؤمن بان القدر هو فوق العقل وفوق

(١) هو مشروب وطني مكسيكي شهير •

الآلهة ذاتهم ، وانه لايجوز لاحد ان يقاوم وحي القدر ، لذلك طلب كوبا من الفخار ملونا بالاحمر ، وملاه شرابا من (البولكه) ، وشرع في احتسائه ببطء وتأن ، وكان قاعداً على عرشه ، واضعاً التاج فوق رأسه ، وحاملاً بيده الصولجان ، وعندما انتهى من شرب الكوب الاول ، ملأ الكوب الثاني فرحاً ثملاً ، وتخلّص من التاج والصولجان ، ونزل من سدة العرش ، وقعد بين من كانوا يشاربون من الشباب ، مما شجعهم على التحدث اليه في امور شخصية ، وقد افرغ هذا الكوب الثاني ببعض السرعة ، ثم ملاه للمرة الثالثة ، وشربه واقفا نشواناً ، بعد ان خلع وشاحه الملكي ، وطلب الى الحرس الخاص ، أن يغادر القصر ، ليبقى مع ندمائه ، ولم تمض برهة على اختلائه بهؤلاء الخلان ، حتى بدأ يفتر ويسترخي ، ويتكلم بصوت عال ، ويتحدث عن مغامراته ، ويقرأ الشعر الغزلي . وحين وجد الشبان بان الفرصة موافية لهم ، طلبوا اليه ان يغني اغنية من اغانيه ، فتقدم وانشد :

قصري اللازوردي ،

وقصري الماسي ،

وقصري الذي هو في الفضاء ...

اني لذهاب لذهاب

فصنق له اصدقائه ، واخذوا يغنون معه هذا المقطع ، ويملاون الاكواب ويفرغونها ، وهم يرقصون ، ويصفقون طرباً

وحبورا ، وكان العرق يتحدّر من على جبين الملك ، ورائحة
الخمير التي كانت تصعد من فيه قد افسدت الجو . ولما تفتعه
السكر صاح قائلا :

« اذهبوا الى مدينة (تلاكوايان) واجلبوا لي حبيتي
(كنزلبنتل) فاني مشتاق اليها واريد ان اسكن معها في هذا
القصر » جاءت هذه الفتاة ، واخذ الملك يغازلها ، ويداعبها ،
ويبادلها اكواب الخمر ، حتى وقع الاثنان على الحضيض ، فاقدى
الحس والادراك .

هكذا استطاع (تيزكاتليكو) اله الظلام ان يلقي النور على
نواح من النفس كان قد ارخى عليها اله النور ستارا من الظلام .

استيقظ (كنزالكوتل) من سكره ، بعد اكثر من عشرين
ساعة ، وكانت حبيته قد استيقظت قبله ، وهربت ، ونسي الاله
الشيء الكثير من حوادث الليلة السابقة ، بيد ان ما بقي في ذاكرته
كان كافيا ليثير في فؤاده اعماق الآلام ، واشد الياأس ، وقد ندم
حيث لاينفع الندم ، وشكا حيث لا تجدي الشكوى ، ولم يعد
لديه رغبة لمقابلة أحد ، او لمباشرة أي نوع من انواع الحكم ،
وحاول ان يكفّر عن ذنبه ، فأمر خدامه بان يحفروا له في حديقة
القصر قبرا على طول جسمه ، نزل فيه ، وبقي مستلقيا على
ظهره ثلاثة ايام وثلاث ليال ، صائما عن الاكل والشرب ، غارقا
في خضم من الهواجس والخيالات المفعمة بالسواد .

قال (كترالكوتل) :

« ساترك للاجيال المقبلة ان تقول كلمتها في نجاح مهمتي على الارض ، وفي الفائدة التي ستجنيها الشعوب مما علمته لشعب (التولتيك) من علوم ، وما لقنته من فنون ، وما رسمته من عبر ، وما نظقت به من حكم ، ولكن هذه المهمة قد انتهت حتما الآن ، ولم يبق لي في الدنيا عمل ، وان النار وحدها تستطيع ان تمحو ما اقترفته من اثم . »

وجمع الملك شيوخ (تولا) ووجهاءها ، واطلعهم على اعتزامه التنازل عن الملك ، فجرى له وداع حافل ، اشترك فيه الشعب بكامله ، وبكى الرجال ، والنساء والاطفال ، فراق هذا الراعي الكريم ، واشتركت الطبيعة في الحزن ، فجفت الانهار والسواقي ، وتوقفت الينابيع عن السيل ، والطيور عن الغناء ، واسودت الاشجار ، وزال عن الزهور أرجها العبيق ، وعن الفواكه طعمها ، وعرقت من الالم التماثيل ، واللوحات الفنية في القصور والمعابد ، والساحات .

سار كترالكوتل نحو البحر ، وعندما وصل اليه ، جمع على ساحله اكواما من الخشب والحطب اليابس ، وصلّى حتى بزغ الفجر ، ثم ودّع الحياة الدنيا ، ووعد بان يعود اليها في يوم تكثر فيه الويلات والكوارث ، فتهدم المدينة ، وتمتحن حرمة الآلهة ، ويقتل المواطنون ، ويحرم ابناء الشعب مزايا الحرية

اجيالا عديدة ، وتزول معالم الحضارة القديمة عن بكرة ايها ،
لتحل محلها حضارة دخيلة تأتيهم على حد السيف ، من وراء
البحار .

وبعد ذلك ، اشعل النار في اكوام الخشب والحطب ، ونزل
فيها فاحترق جسمه وتحول الى رماد ، وصعدت روحه الى
السماء ، دخانا ذهبيا ، ساطعا ، عاليا ، عاليا ، حتى بلغت مواقع
النجوم ، فكانت اجملها وابهاها ، اذ تحولت هذه الروح الى
نجمة الصبح .



الطائر «كو»

في البدء ، خلق الرب (بيتاو كوزانا) السماوات والارض ،
وقد قضى اربعة ايام منسكباً على عمل شاق من الابداع والتكوين ،
فاوجد النور والظلمات ، والارض والسماء ، والمياه واليابسة ،
والجبال ، والاوودية والكواكب والاقمار ، والفلك الدوار ، ولما
جاء اليوم الخامس ، ملأ اليهم سمكا ، ولالىء ، وصدفا ، ومرجانا ،
وعلقا ، وخيرات لاتحصى ، وعند الظهيرة ، شعر بتعب شديد ،
وكان قد بقي عليه في نهاية هذا اليوم ان يخلق الطير ، فصمم
اشكالها ، ورسم هياكلها ، والبسها لحما طريا ، وما ان دبت فيها
الحياة ، حتى اخذت تصيح وتشتكي ، وتملأ الاثير صفيرا
وصياحا ، وقد اختلفت كل اسرة من اسر الطير على الثياب التي
نوت ان تتخذها لها ، والاسلحة التي رغبت في ان تعتد بها ،
وعندما علا الضجيج ، واحتدم النزاع ، شعر (بيتاو كوزانا) بملل
وخيبة امل ، واعتراه وجوم عميق ، فدعا اليه انواع الطير فجاءت
اليه ، والتفت حوله ، وحيته بناعم من الرفيف ، فرد عليها التحية
مباركا ، وخطب فيها قائلا :

« لقد عزمت على ان اتمتع هذه الليلة بشيء من الهدوء ،

وبعزلة تامة ، لما انوي ان احققه في الصباح المقبل من عمل خطير ،
واثر منقطع النظير . سأخصص يوم غد ، السادس والاخير من
ايام الخليقة ، لخلق سيد المخلوقات ، آدميا على صورتي ،
ومثالي ، وسأنفخ فيه من روحي مايجعل له روحا لن تقوى على
تحطيمها فؤوس الردى .

واذ لم يكن لدي متسع من الوقت لادخل في جدال ، واخذ
ورد مع اسر الطير ، فساترك ههنا جميع ماقررت ان اضعه تحت
تصرفها من لباس ، وزينة ، ووسائل للكسب وللدفاع ، وعلى
اسر الطير ان تتوزع كل ذلك بينها ، دون الرجوع الي ، ودون
محاولة ازعاجي ، والاعدت بكم جميعا الى العدم والفناء ،
وكفيت شركم سائر المخلوقات مما يمشي ، ويطير ، ويسبح
وينساح .

وعندما انهى (بيتاكوزانا) هذا الكلام ، اختفى واعتكف
في البرج الرابع والعشرين من السماء حيث اعتاد ان يستجم .

تقدم كبار الطير وغيونها ، واختارت لها مناقير جارحة ، قادرة
على اختراق النحور والحشايا ، ومخالب تقطع الاوصال كانها
خناجر ، واجنحة تشق الرياح كالسهام ، هكذا كانت السبع من
الطير التي انفت ان تمس ماتنبته الارض من قوت ، وآثرت ان
تقتات لحوما حية وجيفا ، فتحولت الى قرصان مسلحة بامضى
الاسلحة ، اتخذت قمم الجبال والصخور مأوى لها .

وآلت الى اجناس اخرى من الطير كسوة عادية ، ومناقير
ضعيفة ، بيد انها استعاضت عن هذه الخسارة بكسب حنجرة ،
غدت ينبوعا لا ينضب معينه من الجمال ، تمطر الاحراش ،
والرياض ، والسهول الخضراء ، بوابل من الانعام البهية ،
والالحان الشجية ، وتناجي الاليف بارق الاناشيد ، واروع
الاغاني .

وهناك فئات ربحت آيات من الريش الفاخر يبهر النظر ،
ويثير الخيال ، وزمر أخرى منحت مزية الصيد والغوص في الماء ،
او السير على سطحها كأنها قوارب ، وانواع غيرها حصلت على
جناح غدافي ، او على قبرة لامعة .

لقد تمكن كل طائر من ان يسجل كسبا ، او ينال هبة ، او
يؤمن نفعا ، فيما عدا واحدا ، كان صغير الحجم ، ضعيف الجسم
كثير الحياء ، يميل الى الاختفاء والانزواء ، لما يشعر به من خجل
كلما اجتمع بسواه من ذوي الكبد الحرى . لقد كان بعيدا حينما
طلب الخالق الاعظم الى الطير ان تختار لنفسها ما خصه لها من
ميزات وعطاء ، وقيل انه لم يسمع هذا النداء ، وقيل ايضا انه
سمعه الا انه لم يستطع ان ينتقي أي شيء لنفسه بسبب نحول
جسده ، واشتداد المنافسة بين الطيور ، واخير زعم انه لم
يحصل على شيء بسبب تردده ، وعدم معرفته ما يريد ، وعجزه
عن ممارسة حق التقرير الذي منحه الالهة للمخلوقات الحية .
لقد آثر بعضها أن يرى في الليل ، وبعض آخر ان يرى في

النهار ، وحبذ بعضها الغذاء لحوما وفضل آخر جبا ونباتا ،
واستطاب بعض حياة الدواجن ، وآخر عزم على ان يتصرف
باجنحته كما يشاء ، ورجح بعضها الاستقرار في ارض ترعرع في
كنفها ، وبلغ اشده في اجوائها ، وعمد بعضها الى الانتقال بين
الاقاليم والافاق ، لينعم بفتنة الطبيعة ، وبعجائب البلدان • لقد
قام كل طير خلقه (بيتاوكوزانا) يخط خطة لنفسه ولذريته يسير
عليها ، ويتقيد بها حتى نهاية العالم ، الا هذا الطائر الضعيف
النجيف الذي لم يقو على اتقاء كسوة يكتسي بها ، او مزية
يتمتع بها حتى ولا اسم يعرف به •

وبينما كان النسر يحلق فوق ظهور الطود الشامخة ، حيث
اتخذ له عرشا ، باسطا جناحيه على الدنيا ، كأنه يريد ان يحتضنها
او ان يخضعها لسلطانه ، وكان البازي ينقض على الارض من
اعلى السماء ، ضاربا الغيوم بعريض صدره ، فتهتز لهول منظره
الطيور ، وكان الطاووس يسير على الارض مرحا ، كأن الشمس
تطلع على هامته ، وكان الغبراء باسمه فرشت ، وكان ابو براقش
يختال تيتها لعظيم رقبتة ، وفخيم رجليه ، ومنقاره الوردي ،
مثلونا كل ساعة بلون زاه ، من احمر ، واخضر ، وازرق ، وكان
ابو هرون يطرب بصوته العذب الحقول والاحراش ، فتجتمع
الطير بالقرب منه ، للاستماع اليه ، كان طائرنا الضعيف النجيف
معتكفا على شجرة من الجوز ، لا يستطيع الحراك ، ولا يقدر
على النداء ، ينظر الى ماحوله نظرة الولهان الحيران •

وقفت بجانب هذا الطائر حمامة تهدل ، فلاحظت منه ما يثير
الرعاية والاهتمام ، ووجهت اليه الكلام قائلة :

— ما اسمك ؟

فاجاب :

— ليس لي اسم حتى الآن •

— وماذا حدث في ريشك ؟

— لم اعط ريشاً •

— لماذا لم تطلب ريشا من سائر الطيور ، خاصة بعد ان

انتهى توزيع الكسوة علينا ؟

— ماذا ستفكر في ، وماذا ستقول عني ، اذا اتيتها مستجديا ،

مستعظيا ، وخاصة اذا اتيتها لاتتقي بنفسي ما يعجبني من زينة ؟

يا اختي الحمامة اني اشعر ببرد قارس ينهش جسدي •

— انعم بالا ، وقر عينا ، ايها الاخ ، سأذهب الآن الى زملائي

الطيور ، وسأسعى انا لتدارك ما تحتاجه من ثياب ، فعليك اذن

ان تقفز على الاغصان ، لكي يدفأ جسمك ، وتوفر لديك الحرارة

اللازمة ، بانتظار عودتي اليك ، وسأتيك بما يرضيك ويكفيك

لاتقاء قسوة شهور الصيف والشتاء ، وسيكون في وسعك بعد

ان تتغذى من الحبوب الذهبية المبعثرة على الارض ، ومن

الديدان الشهية المستقرة على الاشجار ، وان تهل ماء قراحا من

العيون الفضية التي تحيط بنا ، وتغتسل في البحيرات اللازوردية
المجاورة لنا ، فتزداد نشاطا وحيوية ، وتنهأ بعيشة رضية مرضية •

قصدت الحمامة اصدقاءها من الطيور ، وقصت عليها فاجعة
هذا الاخ المنكود الطالع ، وما يعاينه من بؤس وعسر ، وما هو
معرض له من اخطار واوزار ، وكان لكلمات الحمامة ابلغ الوقع
في قلوب الطير ، فهز الديك عرفه نائرا ، وقرقر الكركي دهشة ،
وبكى العنديل على خد الورد حزنا ، وانزلت الجبارى عنقها
وذنبها نحو الارض تأسفا ، ونشب جدال حار بين جماعة الطير ،
حول وضع طائر ليس فيه ريش ، في منطقة باردة كمنطقة (سيرا
اكستان) ، حيث كانت تعيش ، وعلت اصواتها وصعدت وقوقة
ضج منها شجر الصنوبر ، والصفصاف ، والدب ، واضطر
الهدهد الى ان يدعو اخوانه الى النظام مصفرا مهددا ••

وارادت الحمامة ان تسكت اسر الطير بجميل صوتها ،
فاسمعتها من هديلها وسجعها ما هزها سرورا ، واسكرها جبورا ،
وبث فيها روح المحبة والايمان ، ثم فتحت باب التبرع ، ودارت
على الطيور تجمع ما يوجد به كل منها لشد ازر الاخ المحروم ،
فوهب لكل طائر ريشة من ريشه ، اسرعت الحمامة في حملها
الى الطائر الضعيف النحيف ، فاكتسى بها ، وبعد ان ابعد عن
جسمه النحيل الهزيل ، هول البرد وخطر الرشح والحمى ، تأمل
في نفسه فلم تعجبه صورته ، وكأنه كان يطمع بمظهر اكثر اناقة
ولباقة ، فسخط على اخوانه سخطا رأى من المصلحة ان يدعه

مكتوما ، واعتبر كسوته خيبة امل له كبرى لن تمحوها الاجيال .
وارادت اسر الطير ، اتماما لحسن صنيعها ، ان تجد له اسما ،
فاقترح كل طائر صوتا من الاصوات يمكن ان يعرف به ، ولكنه
صادف ان كل اقتراح من احد الطيور ، كان يلاقي معارضة
عنيفة من الاكثرية ، كما كان يلاقي رفضا صريحا من الطائر
المحروم ، واخيرا اجمعت الطيور على ان تترك له ان يختار له
اسما ، وحيث انه كان قد سبق وسمع غناء الهزاز ، والدراج ،
والقمري ، ذلك الغناء الذي كان يضاهي برقته خرير المياه
العذبة في الاودية ، وحفيف الاغصان الرطبة عندما يدغدغها
النسيم ، اراد ان يجيب على الطيور بمثل هذا الغناء ، ففتح فاه ،
وجار على حلقه وحنجرتة ، فلم يفلح باخراج أي لحن من
الالحان ، وكل ما استطاع ان يفوه به هو :

كو . . .

ثم حاول مرة ثانية ومرات عديدة ان يعني فكان كل مرة
يسمع الحاضرين :

كو . . . كو

فظننت اسر الطير انه اختار له هذه الكلمة اسما ، لذلك
اطلقت عليه بالاجماع اسم « كو » .

وكانت هذه التسمية اخفاقا جديدا له في الحياة ، اذ تأكد
بانه سوف لن يكون منشدا أو شاعرا ، او مطربا . . .

وودعت الطيور (كو) ، مسرورة لما اغدقته عليه من مساعدة قيمة ، ووفرت له من اسباب الحياة والكرامة ، وسبل الاشتراك في ندواتها ومجتمعها ، وبقي (كو) وحيدا يبكي سوء مصيره ، وتلك « القسمة » الرديئة التي كانت من نصيبه ، والتي ستبقى ملازمة له مدى الدهر .

عرف « كو » بأنه اصبح مدينا ابدا باسمه وبكسائه الى اخوانه ، وانهم سيظلون يذكرونه صراحة ، او ايماءً بهذا المعروف ، ويمنون عليه ، وينظرون اليه نظرة المحسن المتكبر الى العاجز المقل ، وان كل رغبة يبيدها للتحرر من عبء هذه الحال ، ستفسر كأنها نكران للجميل ، وتقض للعهد ، واعتقد « كو » ان هنالك فنا للاحسان يجعل المحسن اليه مرتاحا ، محافظا على كرامته ، متمتعا بشخصيته ، حرا في تصرفه ، وان هذا الفن سوف لن تتقنه الطيور ، وان قبول العطاء يلقي على جسمه النحيل حملا ثقيلا قد يقضي على صحته . لذلك قرر « كو » ان يعيش وحيدا بين الطيور ، بعيدا عنها .

ومنذ ذلك الزمن ، « وكو » يصب كل عبقريته ، ويستتفر كل قواه في سبيل تلافى الاجتماع بسائر الطيور فيختبئ في النهار ، لكي لا يلتقي بطيور النهار ، ويختبئ في الليل لكي لا يشاهده طيور الليل ، ولا يخرج من مأواه الا في اوقات الشفق والطفل ، حين تأوي طيور النهار الى اوكارها ، وحين تظل طيور الليل مختفية في حماها ، الى ان يستقر في الكون الظلام .

شعار الجمهورية المكسيكية نسر واقف على شجرة من
« الصبر » يقتل حية . وقد رسم هذا الشعار على
علمها ذي الالوان الثلاثة الاخضر - الابيض - الاحمر
وعلى نقودها ، وعلى ابنتها وسجلاتها الرسمية ،
ولهذا الرسم اسطورة شهيرة نوردها فيما يلي تحت
عنوان : « النسر والحية » .

النسر والحيت

كنا في جامعة مكسيكو نفتتح معرضا للآثار المصرية لمناسبة الحملة العالمية التي نظمتها اليونسكو في سبيل انقاذ آثار النوبة ، وقد قام باعداد هذا المعرض المكسيكيون من اساتذة كلية الفن المعماري ، وطلابها • وخرجنا من المعرض برفقة احد المعلمين الافاضل ، نطوف في انحاء الابنية الجامعية ، التي تعتبر آية من آيات الفن المعماري الحديث ، وقد شيدت وسط حدائق فسيحة الارحاء ، عند مدخل العاصمة من جهة الجنوب ، على طريق مدينة (كوينزافاكا) السياحية ، في حي اختاره مقرا لهم اصحاب الملايين من الاميركيين ، ونجوم هوليوود • اعربنا عن اعجابنا بتلك الصروح الجامعية الفريدة التي تضم اكثر من خمسين الف طالب ، والتي اشترك في تصميمها ، وانجاز الفسيفساء الجبارة التي تغطي جبهاتها او تعمم هاماتها ، كبار فناني اميركا ، وخاصة السيدان (الفارو سيكيروس) و (اوغرمان)، وتمثل هذه الفسيفساء حضارات المكسيك الطارفة ، بجانب الحضارة التي يتوقع المفكرون ان تنتظم عالم الغد ، كما اعربنا عن اعجابنا ايضا بالملعب الجامعي الذي شيده الرسام (ديغوربيريا)

على شكل مخروط كالبركان ، ليتسع لمائة الف متفرج ، وليفوق
بعظمته ملعب (الكولوسيوم) ، وهو اشهر اثر من هذا النوع
بناه الرومان في مدينتهم الخالدة •

هكذا قادنا الحديث الى موضوعات لم تكن ننتظر اثارها ••
قال لنا رفيقنا المفضل :

— بنيت الجامعة ، وبنيت الجنات التي تحيط بها ، على
صخور جرداء ، وكانت الراية المجاورة لها في ماضي الاحقاب
بركانا اسمه (زتل) وقد ثار وتفجر هذا البركان في وقت ما ،
ويقال ان ذلك كان في القرن العاشر قبل المسيح ، ودفنت تحت
الحمم والنيران والغسالة التي كانت تندفع منه مدينة زاهية
زاهرة ، لم يبق منها سوى تلك الاحجار والمرتفعات السود •

— وهل تعتقدون ان هذه الكارثة هي شبيهة بما حل في
مدينتي (بومباي) و هر كولا نوم) في العام ٧٩ ؟

— ان ما حدث في المدينتين الايطاليتين يعرفه المؤرخون معرفة
تامة ، وقد اتيح للكاتب الروماني (بلينيوس القديم) ان يشهد
الكارثة بنفسه ويترك لنا وصفا دقيقا لها وقد قضى نجه شهيد
العلم مختنقا بما كان يطلقه بركان (فيزوف) من كثيف الدخان ،
عندما اقترب من فوهته ليشاهد ثورته عن كذب ، اما انفجار
البركان ، (زتل) فانا لانعرف عنه حقائق واضحة ، وليست لدينا
بشأنه ايضا حات ثابتة • الا انك اذا شئت ان تحفر هذا الاديوم

بعض الامتار : تجد بقايا حضارة من اجزاء بنايات قديمة ، قد تكون هياكل او معابد ، واذا عدت فأوغلت في الحفر ثمانية امتار اخرى في بطن الارض ، وجدت نماذج لحضارة ثانية من اوعية فخار مطلية او ملونة ، او لوازم بيتية وقطع من القيشاني ، هكذا كلما تعمقت في سبر غور البقعة ، انتقلت بعضا من الاجيال الى الورا ووجدت اثارا لمدينت قامت في البلاد لم نعد نعرف عنها الا الشيء اليسير .

— ولكن معلوماتكم عن شعب (الاستيك) كثيرة جدا .

— ان (الاستيك) هو آخر شعب سكن وادي مكسيكو قبل اكتشاف اميركا ، وهو شعب حديث اذ استقر في هذه المنطقة منذ عام ١٣٢٥ ، وهو الذي سلم البلاد للاسبان في عهد الملك (مكتزوما) الثاني سنة (١٥٢١) ، فيكون سلطان (الاستيك) قد دام مائتي عام فقط .

— اتظن ان ما نعرفه نحن عن تاريخ الشعوب التي سكنت بلادنا وعن اجدادنا في العصور الاولى للتاريخ هو اكثر مما نعرفونه اتم عن شعوب بلادكم الاصلية ؟

— نعم ! كل مثقف في العالم يعلم عن حضارات الشرق القديمة اكثر مما يعلمه عن مدينة كثير من الدول المعاصرة ، ذلك لان تلك الحضارات هي احد المصادر الكبرى التي يتغذى منها الفكر البشري حتى ايماننا هذه ، وان ما تركته من مثل

انسانية ، نعتبره مشتركا بين جميع الدول المتقدمة .. ثم مضى
محدثنا يقول :

ان المكسيك هي بنظري دنيا الآثار .. ودنيا الاسرار معا ..
ان ماضيكم اتم . هو ساطع لامع ، يصدق على سائر الشعوب في
الشرق والغرب انوارا من المبادئ السامية ، والعبر ، ويشع آيات
من نتاج الخيال المبدع ومن الفنون الخالدة ... اما ماضيها ،
فانه لم يزل مطويا تحت الارض ، او متواريا تكتنفه ظلمات
القرون الغابرة . ورغم عظمته وجلاله ...

— شاهدت بام عيني ، عندما كنت ازور مدنكم ان المكسيك
قد خطت خطوات حقيقة بالاعجاب والتقدير منذ مطلع هذا القرن
في سبيل انقاذ آثارها ، والمحافظة عليها ، واحياء تراثها القومي
الاصيل .

— لقد تعاقبت على اراضيها ، قبل شعب (الاستيك) ،
شعوب وحضارات كلما ازددنا اطلاعا عليها ، ازددنا يقينا بانها
تحمل في طياتها ما نستطيع ان نعز به من قيم على مستوى
عالمي ... سرّ معي في رحلة خاطفة نخترق فيها عباب الاجيال
السالفة ، فنشاهد آثار (التولتيك) في شمالي وادي مكسيكو
بمدينة (تولا) ، حيث التماثيل المنحوتة في الصخور تحكي
بعظمتها تماثيل رمسيس الثاني العديدة ، والرسوم المنقوشة على
جدران هيكل نجمة الصبح ، تذكرنا بنقوش الحثيين ، التي
تدهش السياح بقرقيش وبضواحي حلب ، ثم نتقل الى مدينة

(شولولا) ، حيث شيد (التولتيك) معابد بقدر عدد ايام السنة ، وجميع هذه المعابد قد حولت الى كنائس ، فاندثرت معالمها ، وحيث بني هرم اعظم حجما من هرم (خوفو) بالجيزة ، ثم تنتقل بعد ذلك الى شبه جزيرة (يوكاتان) ، وطن شعب (المايا) في جنوب البلاد ، بين بحر الاتيل ، وخليج المكسيك ، حيث نشاهد الحصون ، والقلاع ، والهياكل التي تعتبر ارووع مافي القارة الاميركية من آثار ، ثم اذا سرنا معا نحو خليج (تيواتتيك) الذي يبعد ٨٠٠ كيلو متر تقريبا عن مكسيكو جنوبا ، نجد حضارة عظمى هي حضارة (الزابوتيك) ، وتفيد العقائد الشعبية ان عاصمتهم (متلا) هي كائنة على ابواب ديار الخلد ، لذلك كان الملوك والزعماء والقادة والسراة يأمرؤن بان يدفنوا فيها ليكونوا على مقربة من هدفهم الارفع في الحياة الدنيا ، وكان كثيرون من (الزابوتيك) ينتقلون الى تلك المدينة قبل ان يدركهم الموت ، فالذين كانوا يصابون منهم بداء عياء ، والذين كانوا يملون تكاليف العيش ويلم بهم اليأس والقنوط أو يضيقون بسوء طالعهم فقد كانوا يستقرون في لحودهم ويمتعون عن تناول الطعام والشراب ، منتظرين الساعة الرهيبة . وفي الآخرة ، كانت توزع الارواح حسب انواع الاعمال التي قام بها اصحابها على الارض ، لا حسب التقوى التي امتاز بها الانسان . فكان للمحاربين مثلا وللذين ذبحوا قرابين على المعابد محل الصدارة في الفردوس الابدي ، بجانب الشمس نفسها ، اما سواهم ممن مارسوا مهنا شريفة ، فكانوا يعودون الى الارض

بعد موتهم بشكل قنابر وعصافير يتغذون من رحيق الزهور •
واما الذين قضوا نجبهم لاسباب غير تلك الاسباب الرفيعة ، فانهم
يذهبون الى جهنم حيث يجتازون محنا ومراحل مختلفة حتى
تتظهر انفسهم ، فيصعدون الى جنات خاصة تعين لهم • لذلك
كانت اسرهم تعنى بان يدفن معهم جميع ما يحتاجون اليه من
مأكل ، وشراب ، وذخيرة ، وهدايا ، ولباس ، لكي يحسنوا اجتياز
تلك المراحل ، والوصول الى الجنات سالمين •

وتوجد في جانب (متلا) مدينة (موتتي البان) حيث
اكتشف العالم المكسيكي (الفريدو كازو) عام ١٩٣٢ منطقة
قبور لا تقل كنوزها اهمية عن الكنوز التي تحفظها مصر ، بوادي
الملوك ، من قطع ذهبية ، والبسة ، واسلحة مرصعة بالاحجار
الكريمة ، وحلي ، ورسوم عجيبة على الجدران ، لم تزل حتى
الآن زاهية الالوان • وهنالك حضارات اخرى ، لاشك في انك
سمعت الكثير عنها كحضارة (الاولميك) ، و (التوتوناك) ،
و (الاتوميس) وغيرها •• ان ارض المكسيك ، بنظر علماء
الآثار ، لم تزل ارضا بكرًا ، ويكتشف هؤلاء العلماء مايقرب
من ثلاثمائة مكان اثري جديد كل عام ، وتدل الاحصاءات التي
قمنا بها مؤخرا بانه يوجد لدينا حاليا ١٥٠٠ منطقة آثار جرى
التنقيب فيها •

ثم تساءل محدثنا اذا كانت هنالك علاقة بين تاريخنا القديم
وتاريخهم ، او صلة بين آثارنا وآثارهم ، فقال :

— يغلب الظن ان شعوب اميركا القديمة هي من اصل شرقي
وقد اجتازت مضيق (بهرنغ) قبائل ، وجماعات قادمة من
الاقطار الآسيوية ، منذ عشرين الف سنة قبل المسيح ، الى اميركا
الشمالية ، ومنها سارت نحو الجنوب ، وانه لمن المرجح بان كل
صلة لم تفقد ، منذ ذلك التاريخ حتى ظهور (كولومبس) بين
دنيا الشرق وبين دنيا الغرب . ان البحارة القدماء في بلادكم
كانوا يتمتعون بمهارة معلومة في قطع البحار النائية ، وقد شاهدت
ولا شك ، عندما زرت الهيكل الكبير المخصص لجميع
الآلهة في مدينة (شيتشن اتزا) عاصمة (المايا) ، وجوها عربية
وفينيقية ، وآرامية ، وان احدا لا يستطيع ان يفسر لنا من اين
اتت تلك الوجوه . اما الفاتحون الاسبان الذين دخلوا هذه
البلاد وسائر اقطار اميركا اللاتينية ، ونشروا فيها لغتهم
وحضارتهم ، فان الكثير منهم ، كما هو معلوم ، كانوا من
اصل عربي .

واما المقارنة بين اهرامنا واهرام مصر ، فاني لا أستطيع ان
اخوض في بحثها على وجه الكمال ، ان هذا الموضوع يحتاج الى
دراسات واسعة لم اتمكن من القيام بها ، ومن المؤسف ان ليس
بين علماء آثارنا من هو خبير في آثار الشرق ، وليس بين علماء
آثار الشرق من هو ملم بآثارنا ، ولكن على وجه التقريب يمكن
القول بان اهرام مصر قد شيّدت ، حسب ظني ، لتكون مراقد
للفراغة ، عندما يغادرون هذه الدنيا ، اما اهرامنا فهي بالاساس
معابد ، ومذابح . اهرام مصر تثير في النفس تلك الرهبة التي

يشعر بها الانسان تجاه الموت ، واما اهرامنا ، فهي كثيرة التتميق تعج بالنقوش والرسوم ، كل ذلك ارضاء للآلهة ، واستدرارا لعطفها ، ويابيح الانسان من اولئك الآلهة .. خاصة آلهة (الاستيك) ...

هكذا شرع الاستاذ يبحث في شعب (الاستيك) فقال :

لم يكن شعب (الاستيك) ، في بادىء امره ، يمتاز بمدينة راقية ... وقد انحدر من احدى القبائل السبع التي قدمت من شمال اميركا ، وعاشت الوفا من السنين في حالة البداوة وكانت تنطق لغة واحدة هي لغة (الناوا) ، وقد مكثت بعد ذلك بعض الاجيال في بلاد (الكهوف السبعة) ، ثم شيدت مدينة (اسلان) لتقيم فيها موقنا ، بالقرب من خليج كاليفورنيا . ولم تكن رسالة (كترالكوتل) الانسانية قد بلغت (الاستيك) ، اذا كانوا شعبا بدائيا شجاعا ، يعبد آلهها اسمه (هوبتسيلوبتكلي) ، أي الطائر الغريد ، وهو اله الحرب . وكان (الاستيك) يسجدون له من على قمة معبده ، حيث كان قاعدا على عرش ازرق ، متمنطقا بزئار من الثعابين ، مقنعا بقناع من الذهب ، ومطوق الرقبة بطوق من الجماجم البشرية . كان هذا الاله يجب الضحايا البشرية حبا جما ، لا يبل من تلقي جثتها ، مهما تعدد ، ولا يرتوي من دمائها مهما تكثر . لذلك فان حالة السلم ماكانت لتريجه ، وتروقه ، واذا طالت هذه الحالة ، فانه يبدي غضبه وسخطه باتلاف المزروعات ، ونشر الاوبئة ، وارسال العواصف ، واشعال الحرائق ، واثارة

البحار ، حتى يذعن الشعب لمشيئته ، ويرضخ له فينقض على الشعوب المجاورة وينزل فيها التقتيل والدمار • ما كان (الاستيك) يحاربون طمعا بالغنائم والكسب فحسب ، انما كانوا يدخلون القتال قبل كل شيء للحصول على اسرى يضحونهم على هيكل هذا الاله • وتفيد تواريخنا المكسيكية القديمة بان (الاستيك) كانوا يكرمون الاسير ابغ اكرام ، ويغدقون عليه الحلي ، واسباب التسلية والرفاهية ، ويخصصون له اشهى المآكل ، واطيب الخمر وفي اليوم المعين لاداء فريضة العبادة الى الاله ، ذلك اليوم الذي كانوا يحددونه بدقة غريبة ، بالاستناد الى حسابات المنجمين ، يحملون الاسير في موكب ضخم ، مرتديا افخر الالبسة حتى الهرم ، حيث يصطف الشعب ، متحمسا ، وحيث يكون رئيس الكهان بانتظاره صابغا وجهه بالاسود والاحمر ، وهنالك ، وسط الاناشيد ، والزغاريد ، والتضرعات ، ودخان البخور ورائحته العاطرة ، يصعد الاسير سلم الهرم ، معززا مبجلا ، حتى المصطبة التي اقيم عليها الهيكل ، فيلقى على الارض ، ويهجم عليه رئيس الكهان حاملا خنجر من السبج الاسود ، ويدخل هذا الخنجر في صدره ، فيفتحه ويخرج منه قلبه حيا مخرجاً بالدماء ، فيمسح به وجهه ، ثم يحك به وجه الاله ، ويلقي جثته على الارض ، فيتقاسمها الحاضرون ويأكلون منها قطعا ، اذ تصبح الضحية ، بنظرهم ، بعد هذه المراسم الدامية ، من نفس طبيعة الرب • ما كان آلهة (الاستيك) يحبون السلم او يأمنون الاستقرار •• وما كانوا ليرضوا للبشر حياة

هنيئة ، ويظهر ان الهدف الذي خلق من اجله الانسان ما كان ليتحقق الا في جو من الفواجع والمآسي ..

وعند مطلع القرن الحادي عشر للمسيح ، كان ملك (الاستيك) (تكباتزين) ورئيس الكهان (هويتزيسون) يباشران الحكم على مدينة (استلان) ، وفي ذات يوم خرجا للنزهة في البراري والقفار ، فاستوقفت نظرهما دوحة عريضة الساق ، باسقة الاغصان ، تسطع الشمس على اوراقها فتزيدها رونقا ، وبينما كانا يتأملان في هذه الدوحة خرج من بين دغلها طائر ، وسار نحوهما يرفرف بجناحيه ، وينادي (تهوي) (تهوي) ومعنى هذه العبارة في لغة (الاستيك) « لنذهب من هنا » وسأل الملك رئيس كهانه :

— ماذا يريد منا هذا الطائر ؟

فأجاب :

— هو الرب (هويتسيلوبكتلي) ، وقد رأته في المنام يدعوننا الى مغادرة هذا البلد ، والرحيل نحو الجنوب .

وبعد ايام قليلة ، استأنف الشعب رحيله بقيادة مليكه ورئيس كهانه ، وقد ظهر الاله من جديد عليهما ، وسلّم الى رئيس الكهان زينة من الارياش ، وقوسا ، وسهما ، وشبكة صيد ، واطاف ما يلي :

« ستذكركم الارياش بانكم شعب مقاتل ذو انفة وكبرياء ،

لا يرضى عن القتال بديلا ، ولا يسكت على ضيم ، ويذكركم القوس والسهم بانكم سوف لن تفهروا ، اما الشبكة فانها ستذكركم بما كتب عليكم انكم ستكسبون ملككم فوق الماء » .

وكان (الاستيك) يسيرون الى الامام منذ سنوات عدة ، حينما بلغوا أطلال مدينة (تولا) ، عاصمة (التولتيك) ، التي اصبحت قاعا صفصفا بعد ان هجرها (كترالكوتل) (١) فاتخذوا من هذا الاخير الها لهم . بالاضافة الى ربهم القديم ، ومكثوا في (تولا) تسعة اعوام يحاربون الشعوب المجاورة ويفرضون عليهم تقديم الاسرى والرهائن والهبات . ثم عادوا ينتقلون بين الجبال ، والقفار ، والغابات ، والفيافي ، حتى وصلوا الى ارض بهاء جرداء ، عاشوا فيها على مؤنتهم وضلوا السبيل ، فظهر للملك والرئيس الكهان (هويتزيسلوبكتلي) للمرة الثالثة وقال لهما :

— اتريدان ان تكون لديكما صورة لوطنكما المقبل ، ذلك الوطن الذي شئت ان يكون ملاذا ، ومأوى لذراريكم ؟

فأجابا :

— أجل ، يارب الحرب .

وفي الحال ، شاهدا امامهما بحيرة زرقاء تحيط بها جبال خضر ، وهضبات مغطاة بغيوم بنفسجية ، وكانت تسبح فيها جموع من

(١) راجع اسطورة « رواح الالهة » .

السّمك الاحمر ، متلاثة كالياقوت ، وتفرد على ضفافها الطيور ،
وتقفز في ضواحيها المها والظبي بين الشجيرات التي تفوح عطرا
وشذا ، وتتناثر حولها الورود ، من حوجم ، وجلّ ، وذريب ،
والرياحين من نرجس ، وزنبق ، وقرنفل ، وكان في منتصف
البحيرة جزيرة شاهدا عليها شجرة ضخمة من (النوبل) أي
الضبير - باسطة اذرعها الشائكة في الفضاء ، وقد وقف عليها
نسر ، وعندما رأيا هذا النسر ، رماه احد المحاربين المنقوسين
بسهم ، فاصابه في قلبه ، فاستحال النسر الى حورية حسناء وقال
لهما :

— اني الربة (كيلازتلي) ، وقد ارسلني الاله (هويتزيلوبكتلي)
لارشدكما الى الطريق • سيرا من هنا وستبلغان في مستقبل
الايام مكانا تريان فيه ما رأيتما الآن من مناظر ، وفي هذا المكان
ستشيدان مدينتكما الكبرى •

قالت الحورية ذلك ، ثم انقلبت من جديد الى شكل نسر ،
وانقضت على الشجرة ، واقتلعت منها حية رقطاع كانت قد
طلقت غصونها ، وقتلتها ، ثم حلقت بها في الفضاء ، واختفت •

واستأنف (الاستيك) سيرهم نحو الجنوب فوصلوا الى
منطقة واقعة في القسم النصفى من بلاد المكسيك تحيط بها
شرقا وغربا جبال عالية ، وبراكين قديمة مكتسية ثلجا ، تكثر
فيها ، الحقول ، والرياض ، والبحيرات ، والسهول ، والاحراش ••
وكان يطلق على هذه المنطقة اسم وادي (الاناهواك) وقد

اصبحت تسمى اليوم وادي مكسيكو ، وقد سبقتهم الى هذا الوادي الخصيب شعوب منحدره من القبائل السبع (١) اقامت في ارجائه ، وعمرته وبنيت مدنا جميلة ، لم تزل آثارها قائمة حتى الآن ، وقد ضم معظمها الى العاصمة ، كمدن (تيناوكا) و (امكاتيبك) و (ازكابوتالكو) و (تكسوكو) و (تاكوبايا) استقر (الاستيك) في وادي مكسيكو وسكنوا أماكن شظفة وكانوا يأكلون الحيات والنباتات البرية ويدفعون الخراج الى ملك تكسوكو او الى ملك (ازكابو سالكو) او الى غيره من الملوك وكان جميع هؤلاء الملوك في حالة حرب دائمة مما جعلهم في حاجة الى الاستيك نظرا لبرائتهم .

هكذا مضت الاعوام سراعا وكان (الاستيك) خلالها يزدادون قوة ونفوذاً ، وكانت الشعوب المجاورة تخشى قسوتهم ، وتنشد صداقتهم ، واراد يوما ملك (كلهواكان) ان يحالفهم في حرب ضد مدينة (سوشيلكو) ، وكان يخاف ان يعتدوا عليه ، فطلب اليهم ان تقتصر اسلحتهم على العصي ، فانتهت هذه الحرب بنصر لهم مبين ، ولاحظ ملك (كلهواكان) ان (الاستيك) لم يفوزوا حتى ولا باسير واحد ، بينما كانت جيوشه تجر عددا جرارا من الاسرى ، فهزأ بهم واستضعفهم ، فطلبوا اليه ان ينظر مليا الى وجوه الاسرى الذين هم في قبضته ، فلبى طلبهم ،

(١) وقد انحدر الاستيك من احداها ، كما روينا في مطلع الاسطورة .

ودهش حينما شاهد بانه لا يوجد أي اسير واحد له اذن ، وكانت قد قطعت جميع آذانهم ، حينئذ القى قائد (الاستيك) عشرة اكياس دامية على اقدام الملك كانت مليئة بأذان اولئك الاعداء . وطلب (الاستيك) من الملك ان يزوج ابنته الى قائدهم ، فقبل ويوم حفلة الزواج ، البست العروس ثوبا من الذهب والفضة ، وزينت بالازهار ، وقادها (الاستيك) الى هيكل الاله الاكبر ، وفتحوا صدرها واخرجوا قلبها حيا ، وسلخوا جلدها ليلتحف به قائدهم ، ثم شنوا الغارة تلو الغارة على شعب (كلهواكان) حتى قهروه واستعبدوه ، وضموا ملكه الى ملكهم .

ومضى على تلك الحوادث قرنان ، وكان يحكم (الاستيك) ذات يوم الكاهن الاعظم (تينوك) ويقودهم القائد البطل (مكستلي) ، وقد خرجا صباحا من خيامهما ، اذا لم يكن لهما في ذلك الزمن من مدينة او ديار عامرة ، ليتفقدوا مضارب شعبهما فشاهدا جزيرة صغيرة تحيط بها بحيرة ، فركبا زورقا ، ونزلا في تلك الجزيرة التي كانت تخص ملك (ازكابوسالكو) ، ولدى وصولهما اليها ، شاهدا شجرة جبارة من الضبر ، قد نبتت على صخرة عالية ، وكأنها كانت تسيطر على الجزيرة من علوها ، بل بدت كأنها صورة لربة من ربوات الطبيعة تختال تيتها ، وتسجد لها الزهور ، بينما كان النسيم العليل يحن اليها ويدغدغها ، وانوار الصباح تلقي عليها ثوبا من الجمال والوقار . وفجأة شعر رئيس الكهان (تينوك) والقائد (مكستلي) بان جناحي

نسر ضخمة يمران فوق رأسيهما ، ويتجه النسر الى الارض ، حيث يلقي بنفسه فوق حية كانت مخبأة بين الاعشاب ، فيقتلها على الفور ، ويحملها في منقاره ، ويستقيم على غصن من اغصان شجرة الصبر ، ويبسط جناحيه الغدافيين بوجه الشمس التي كانت تتصاعد في السماء .

تذكر الرجلان رؤيا سلفيهما (تكباتزين) و (هوبتزينسون) وقال (تينوك) :

« لقد حان الوقت ... فعلينا ان نشيد مدينة في هذا المكان لتكون قاعدة ملكنا ، واساس سلطانتنا ، وبشيرا لما سنجعله من اريات العز ، وما سنبلغه من علو الشأن ، وما سنجنه من اسباب الرخاء » .

وذهب بعد ذلك (تنوك) و (مكستلي) الى ملك (اركابوسالكو) واتفقا معه على استملاك الجزيرة ، وشيدا عليها بعض البيوت وهيكل لاله (هويتزايلوبكتلي) دشنا العبادة فيه بقتل اسير القيا القبض عليه في غارة قاما بها في هذا السبيل ، واطلقا على هذه المدينة اسم (تينكتيلان) ، نسبة الى رئيس الكهان (تينوك) واسم (مكسيكو) نسبة الى القائد البطل (مكستلي) ... وكان ذلك في عام ١٣٢٥ . وعظم شأن (تينكتيلان) بسرعة زائدة ، حتى بلغ عدد سكانها المائة الف ، وضمت اليها جزر اخرى مجاورة ، وتوسعت هذه الجزر بامتداد الاراضي التي اكتسبت بوسائل اصطناعية على البحيرات

والمستنقعات ، وبفضل انشاء الحدائق العائمة ، وتشييد ارضفة وابنية على العواميد في المحلات التي لم تكن فيها البحيرات عميقة ، وجرت مياه الشرب الى الدور من احراش (شابولتييك) وفي شرقي الجزر بني سد طوله اربعة فراسخ على بحيرة (تكسوكو) ، فشطرها الى شطرين ، وبذلك ابعد عن (تينكتيتلان) خطر الفيضان . وامنت الاتصالات بين جزيرة وجزيرة من جهة ، وبين البحيرات واليابسة من جهة اخرى ، بواسطة اقنية وطرق معبدة عرض الواحدة منها عشرة امتار ، وفي ملتقى هذه الطرق ، شيد مركز البلدة الديني والمدني ، وساحتها الكبرى التي كانت تحيط بها الهياكل والمعابد ، والقصور ، والاسواق ، والمدارس ، وفي عام ١٤٨٧ دشن الهيكل الاعظم للاله (هيو تزيلوبكتلي) ، وبلغت (تينكتيتلان) اوج عزها في ذلك العام ، وغدت عاصمة امبراطورية كبرى ، كانت تفرض سلطانها على المنطقتين الوسطى والجنوبية من المكسيك ، وامتد نفوذها الاقتصادي حتى شبه جزيرة (يوكاتان) و (كوستاريكا) وكانت ٣٧١ مدينة تدفع لها الجزية والاتاوة من ضحايا للالهة والبسة للجيش ، ودره ، وذهب ، وورق ، وشوكولاة ، وعسل ، وبخور ، وحلى ، وارياش ، وقطن ، ومطاط .

وكان يحكم (الاستيك) في بادىء امرهم ملك تنتخبه هيئة من الاشراف من بين ابناء الاسرة المالكة ويطلق عليه لقب « الخطيب الاول » ، وعليه كان يترتب اختيار الكهان ، وكان

رئيس الكهان يمارس اختصاص ولي العهد وقيادة الجيش العليا
ثم تطور الحكم ، بعد نمو (تينكتلان) ، واصبح الملك حاكما
مطلقا شبيها بالآلهة ، يعيش في عزلة تامة عن الناس ، ويتصرف
بحياتهم واملاكهم كما شاء ، وما كان احد يستطيع ان ينظر اليه
وجها لوجه ، ولا ان يمشي امامه لابسا حذائه ، وكان يأكل وحده
على مائدة خاصة ويخدمه النبلاء ، ويسير محمولا على فراش ،
اسوة باباطرة الرومان ، وكان حكمه يقوم على ارستقراطية
عسكرية يتمتع فيها القواد باعظم الامتيازات ، وازدهرت
(تينكتلان) ازدهارا كبيرا جدا ، وزادت فيها الثروات ، وكانت
دولة (الاستيك) ، في عهد ملكها (موكتزوما) الثاني ، اقوى
الدول الاميركية ، وارقاها صناعة وزراعة ، وتجارة ، وعلوما ،
وفنونا ، وادارة ، حينما جاءها من البحر الفاتح الاسباني ...

* * *

وهذه صفحة رائعة من الصفحات التي يكتبها القدر بحروف من دم ، ونار ، ونور ، في سفر التاريخ ، والقدر يسير الاحداث ويمهد لها الظروف الملائمة ، من زمن ومكان ، ويوفر لها الاسباب المناسبة ، من وقائع ومصادفات ، لكي تتجه نحو الهدف الذي خطه لتطور البشر ، ويختار القدر لبلوغ هذا الهدف الرجال المنتظرين ، ويلهمهم ، ويرشد خطاهم في سبيل المهمة التي ارسلوا من شأنها ، فيتغير على ايديهم وجه التاريخ ، وليست ايديهم سوى ايدي القدر نفسه ، او العناية الالهية بنظر المؤمن ، تقود باخرة الانسانية على بحر الاجيال الزاخر ، لنحقق مشيئتها كما في السماء كذلك على الارض . ولم يكن (كريستوف كولومبس) مكتشف اميركا ولا (هيرنان كورتس) فاتح المكسيك ، الا رجلين من رجال القدر .

لفتح اميركا علاقة وثيقة بقضية الشرق ، تلك القضية كانت المحرك الاكبر للازمات التي اجتاحت العالم المتمدن منذ عهد الرومان حتى يومنا هذا ... ضاقت اوروبا بسكانها ، منذ القرن الحادي عشر ، واشتدت الخلافات بين ملوكها وامرائها ، فارادت ان تنفذ الى الشرق ، لتجد في خيراته وثرواته علاجا لما كانت تعانيه من عسر ، وويلات ، فسنت على الشرق حروبا صليبية كانت من نتائجها ان اعاد الشرق الدول الاوروبية الى

حيث كانت فيه قديما من ديار واقطار .. وظلت بعد ذلك احلام الشرق ، وصور مدنه الثرية ومحاصيله الغنية ، وموارده الخصبة تلازم اخيلة الاوربيين ، وكانت دولهم الكبرى في ماضي الزمن فرنسا ، واسبانيا ، والبورتغال ، وانكلترا ، تفتش عن طرق جديدة لبلوغ ارجائه الفسيحة حينما ظهر (كولومبس) على صفحات التاريخ .

لقد فشل الاوربيون في فتح الشرق ، لانهم اصطدموا برجال اشداء ، وبحضارات عريقة ، ونجحوا في اميركا لانهم اصطدموا بالطبيعة وحدها ، فقلبوها ، وتحكموا بها ، وسخروها لما يكفل لهم اليسر والهناء .

كان (هرنان كورتس) فاتح المكسيك ، اعظم الفاتحين شهرة واطولهم باعا ، واشدهم دهاء ، وابعدهم نظرا ، واكثرهم مهارة في استعمال الشدة تارة ، واللين تارة اخرى ومزج القسوة بالندی .

احتل كورتس ، بقوى زهيدة جدا وبجيش صغير ، قارة كبرى ودك اركان حضارتي الاستيك والمايا اللتين تعتبران اعظم الحضارات الاميركية الاصلية ، واراد المؤرخون ان يجدوا لنصر (كورتيس) العجيب المبين تفسيرا ، فقال بعضهم ان هذا النصر يعود الى سعة ارجاء امبراطورية الاستيك ، وكثرة الشعوب التي كانوا يحكمونها بعنف وشدة ، واستعداد تلك الشعوب للتحالف مع أي عدو يظهر للاستيك للتخلص من حكمهم ، وتحالفها فعلا

مع (كورتيس) ضد امبراطور الاستيك موكتزوما . وقال آخرون ان كورتيس قهر الاستيك لان سلاحه كان امضى وأشد فتكا ، من سلاحهم ، وقد كان يحارب بالحديد والنار ، بينما كان الاستيك يحاربون بالسهم ، وان جنوده كانوا يقتلون الاعداء ، بينما كان الاستيك يعملون على تطويق اعدائهم لاسرهم ، وتقديمهم للالهة ، وكان نجاح هذا التطويق صعبا ، نظرا لوجود الاسلحة النارية في ايدي الاسبان . وقيل ايضا ان الاسبان مدينون بهذا الفتح لعبقرية (كورتيس) وقيادته الجريئة ، وسياسته الحكيمة ، وقدرته على الاستفادة من الظروف ، واستغلال الاحداث في وقت كان فيه الاستيك سذجا ، طيبي القلب ، سليبي النية ، وقد سلم معظم قوادهم بناتهم للقاتحين . وقيل ايضا بان الاستيك كانوا يخافون الخيل خوفا شديدا ، اذ كانوا يشاهدونها لأول مرة وقد ظنوا ان الحصان والفارس يؤلفان شخصا واحدا قد يكون الها او وحشا فتاكا ، ضاريا ، واخيرا يعتقد مؤرخي المكسيك أن نصر (كورتيس) على (مكتزوما) يعود لاسباب روحية عميقة ، وقد عرف عن (مكتزوما) بانه كان متدينا ، وانه كان يؤمن بقرب عودة (كترالكوتل) الى الارض ، وان هذه العودة ستكون كارثة على المكسيك كما وعد بذلك هذا الاله حينما غادر الدنيا للمرة الثانية (١) . وعندما شاهد رجال (مكتزوما) (كورتيس) ورجاله لأول مرة ينزلون

(١) راجع اسطورة « رواح الالهة » .

على اليابسة من مراكبهم الشراعية البيضاء ، ظنوا ان (كترالكوتل)
قد رجع على ظهر طائر ابيض كان يشق عباب البحر ، وانه سيجر
معه على المكسيك الولايات ، واقصى العقوبات •

تلك خلاصة عن آراء المؤرخين ، والحقيقة ان (كورتيس)
قد انتصر لانه لم يكن من نصره بد ، وكان هذا النصر محتما ،
اذ كانت قد دنت الساعة التي حددت منذ الازل لذلك التطور
التاريخي والانساني العظيم ، الذي فتح للاوربيين ابواب القارة
الاميركية وثغورها ، وجعلها مسرحا لمغامريهم ، ومرتعا لمهاجريهم ،
وساحة نضال لجنودهم ، وحاملي رسالتهم الروحية ، ذلك بعد ان
اكتظت اوربا بالرجال ، وغاضت مواردها نتيجة للحروب الفاشلة
التي اثارتها ، ولطردها نهائيا من الشرق ••• وكان (كورتيس)
الرجل الذي اختاره القدر لمباشرة هذه المرحلة الخطيرة من مراحل
التاريخ البشري •

وفي البحث عن سقوط المكسيك بيد الاسبان ، نجد
الاسطورة تتصل بالتاريخ ، بل تتوحد معه لتزيده شعرا ، وقد
دونا من الحوادث في هذا الفصل ما اتفق عليه مؤرخو المكسيك
ومؤرخو الاسبان •• ولندع الآن تلك الحوادث تتكلم :

عندما يقع القدر

كان ذلك مساء يوم من ايام ربيع عام ١٥١٩ . وكان ملك الاستيك مكتزوما الثاني يتمشى على سطح الهرم الكبير حيث شيد معبد الاله (هويتزبلوبكتلي) ومن علو هذا الهرم الذي يبلغ اربعين مترا اطل على ساحة (تينكتلان) الرئيسية ، فظهرت امامه العاصمة بقصورها وميادينها ، ودورها ، وشامخ عمرانها ، وبحيراتها حيث كان يسير مايقارب عشرة الاف مركب ، وكان على يمينه هيكل اله المطر (تلالوك) يرتفع على نفس الهرم بجدارته البيضاء التي تتخللها لوحات مطلية بلون السماء الصافية ، وعلى يساره قصر الكهان الابلق ، وقصر لعبة الكرة الوردي ، وامامه هياكل الشمس (كترالكوتل) ، و (تزكاتليوكا) التي كانت جدرانها مغطاة بصفائح الذهب والفضة ، واصنامها مرصعة بالاحجار الكريمة وانواع عديدة من التحف والالطاف ، ارغمت على تقديمها الشعوب التي تغلب عليها (الاستيك) ، وفرضوا عليها حكمهم وضرائبهم . كان (مكتزوما) يتمشى على سطح الهرم الكبير مضطربا ، كئيب الوجه وقد اضناه الاعياء والكلال . قابله في ذلك اليوم كاسيك - أي ملك - مدينة (تكسكوكو) الحليفة

السيد (تزهو اليلى) ، وحدثه حديثا عجبا ، زاعما بان القضاء قد حم ، وان الساعة قد اقتربت ، وان خياله بدأ يلمح في الافق حوافر ليال رهيبية كان يخشى بطشها وهولها •• واطاف قائلا :

« سيدي القدير ، يبدو لي انا سوف نرى من جديد وجه (كنز الكوتل) سوف تسيل الدماء انهارا ، وتتلون بحيراتنا بالحمرة ، وتفنى حضاراتنا التليدة عن بكرة ابيها ، وستهدم (تينكتلان) حجرا حجرا ، وستصبح قاعا صفصفا ، وستسلب كنوزها ، وستحطم آلهتنا ، وستسبى رجالها ، ونساؤها ، واطفالها ثم سنقتل او ستشرد او ستستعبد الى الابد » •

غضب مكتروما غضبة شديدة لهذا الحديث ، وعاتب ملك تكسكوكو ، وناله بقارص من كلامه ، مدعيا ان روح الانهزامية التي تمثلت به ليست الا صورة من عجزه عن ادارة شؤون بلده ، وان (تينكتلان) سوف لن تقهر ، اذ هي قاعدة دولة قوية الجانب وان الاله (هيوتيزبلوبكتلي) قد تعهدا بحمايته ، ورمقها بعين رعايته ، وسيصونها بجبروته وقدرته • وابتعد (مكتروما) هذا الملك عن مجلسه ، وقد انت ما كان يجمعهما من ود ، وتقطع ما كان يربط بينهما من تحالف •

وعندما اختلى (مكتروما) بنفسه تأكد له ان مقاله ملك (تكسكوكو) هو ما كان يشعر به شخصيا ويتوقعه منذ زمن بعيد • ورغم انه لم يكن قد تجاوز الثانية والخمسين من عمره ، فان رأسه اشتعل شيبا ، واعوجت قناته ، وتقوس ظهره ، ومضى

عليه في الحكم سبع عشرة سنة كان خلالها يناضل ويكافح بيأس
واقدام من جهة ، ويراقب الاجرام السماوية من جهة اخرى ،
خائفا ، وجلا ، لينتزع منها ماينطوي عليه مستأنف الزمان
ومطرده الايام ، من رعد ، وسعد ، وترح ، وآلام . لقد كان
هو ايضا يتوقع رجوع (كتزالكوتل) بعد ماسمعه من نذير
الكهان، وتقدير المنجمين ، وما شعر به من وحي فؤاده وضميره ...
امواج من الحزن ، والكآبة كانت تعصف في خلداه .. استعرض
ماحدث في الماضي القريب ، وكانت قد ظهرت في السماء وعلى
الارض علامات ودلائل تنبىء بأسوأ العواقب ، ظهر بالافق ، في
ليلة حالكة ، نور ارجواني مخيف ، كان ينساب من كوكب ذي
ثلاثة اذنان ، اطل من الشمال ساعة ، ثم اختفى ، بينما كانت مياه
البحيرات تغرق شوارع المدينة ، ويسمع صوت شبح بنادي داخل
هيكل (كتزالكوتل) ، بان الخراب قد اصبح على الابواب ،
استدعى الملك احد السحرة ، وسأله عن معنى ذلك ، فاجاب بما
يؤيد مخاوفه ، فأمر بخنق الساحر فورا .

وكانت شقيقته (باباتزين) تشكو مرضا عضالا ، وقد نحل
وجهاها ، وامتنع لونها ، واشرفت على شفا الموت ، فسترت بكفن
ولحدت ، ولكن الحياة عادت اليها فجأة ، وهي في اللحد ،
ونقلت الى القصر وقالت انها رأت في غفوتها وجوها غريبة تنزل
في البلاد ، وتشر في ربوعها الهالك والفناء ... وبعد مدة
وجيزة ، كان (مكتروما) منكبا على الصلاة في دار « العبادة

المظلمة « وهو دبر لرهبان الاستيك ، جاء صيادون بطائر مائي غريب اخضر الريش ، طويل المنقار ، رجح ان يكون غريقا ، ولما قبض عليه (مكتزوما) ليفحصه عن كذب ، اعترته هزة عنيفة ، وسال العرق من جبينه ، واخضر وجهه ، وزاغ بصره ، اذ شاهد على رأس الطائر مرآة سحرية ينعكس فيها كوكب يلتهب نارا ، ثم لاحظ جموعا متراسمة من شجيرات القصب تتخذ شكلا بشريا ، وتركب على الايائل ، وتحمل اسلحة فتاكة ، وتتهيا للهجوم عليه .

واراد (مكتزوما) ان يستدر رحمة الآلهة ، ورضوانها ، فاستجلب حجرة سوداء جديدة من قرية (كيواكان) ووضعها على معبد اقامه لها في هيكل (هويتزبلوبكتلي) ، وامر بجمع اسرى عديدين ضحاهم بعد ذلك على هذا المعبد الذي زين بافخر الحلي والمعادن ، ولما حاول خازنه الخاص ان يلفت نظره الى استياء الشعب من تكاثر الضرائب عليه ، حكم على خازنه بالموت .

هكذا غدا (مكتزوما) شديد البطش ، ضعيف الارادة والاعصاب ، مرهف الحس ، سريع الغضب والتأثر ، مستسلما لما كان يمر في مخيلته من أوهام .

كان الليل قد ارخى سدوله وبدأت الانوار تشع من نوافذ المعابد ، وتتصاعد روائح البخور والدماء ممزوجة باريج الازهار ، وانغام الموسيقى ، واحس مكتزوما بتعب وضنك ، وغادر الهرم الى قصره ابتغاءً لقليل من الراحة .

ولم يقوَ (مكتزوما) في تلك الليلة على النوم ، وعندما اصبح

الصباح ، اعلمه الحجاب ان على باب القصر بحارة يريدون مقابلته
وقد جاؤوا من سواحل بلاد (المايا) ٥٥٥ ولما مثلوا بين يديه ،
التمسوا المغفرة لجرأتهم ، ثم اخبروه بانهم شاهدوا من على ضفاف
البحر ، جبالا تتحرك على الامواج ، وبرجين عاليين يسيران على
البحر ، وكان عليهما رجال بيض الوجوه ، يبدو انهم ابناء كريهة ،
واخوان غمرات ، وقد التحوا بلحى سود وشقر ، وتدرعوا بدروع
كانت تنعكس عليها شمس النهار ، وتقلنست هاماتهم بكلمات
تلوها ريشة بيضاء ٥٥٥ فحشي (مكتزوما) ان تكون النبوءات
قد تحققت ، وكان بعض الكهان قد صوروا (كتزالكوتل) بمثل
هذا الشكل الذي وصفه البحارة ، وسأل اولئك البحارة عن رأيهم
في الرجال البيض ، فلم يجرؤوا على الجواب ، ولدى اصرارهم
على السكوت ، استشاط (مكتزوما) غيظا ، واوعز الى حرسه
بقتلهم .

وبدا (لمكتزوما) بان ما قاله البحارة هو على جانب عظيم من
الخطورة ، فشرع يوفد الطلائع والنواقض على الثغور والسواحل ،
لمراقبة الغزاة واعلامه بما سيقومون به من محاولات ، للتوغل في
البلاد ، واذكى العيون على الرجال البيض ، واصبح عملاؤه منهم
بمرصد ، ومرأى ، ومسمع ، يعسون الليل ويحرسون النهار ، حتى
تثبتوا من اقبال البيض على الارض الاستيكية بقضيمهم وقضيضهم ،
جما غفيرا وجيشا كبيرا لاحتلال هذه الربوع ، والاستيلاء على
مواردها ، ونهب جناتها ، فنقلوا ما شاهدوه الى مكتزوما ، فايقن
ان القدر يتقدم نحوه بجحافله ، ولن يجد لصدده وزرا ، وان

القضاء يطوقه بأسواره ، وأن كل تدبير يتولاه لخرق تلك الاسوار
سيجر عليه الفواجع والدمار ، وقد اطل عليه هذا القضاء من عالم
الغيب ، فعليه ان يمثل لامره ويستسلم لقهره وان (كترالكوتل)
قد اوحى اليه بما سجل في اللوح المحفوظ ، فعليه ان يلقي على
اقدام الآله القياد ، وان يتمتع عن النزاع والعناد .

شعر (مكتروما) بعجزه عن صد سيل الحادثات التي بدأت
تجتاح بلاده بما لقوى الكون الاصم الابكم من بأس واندفاع ،
شعر بضعفه امام تلك القوى ، الا انه حاول ان يتعلق ببريق من
الامل ، ليجد لنفسه عزاء على مقابلة المحن ، اراد ان يسعى ببذل
مافي وسعه ان يبذل من جهد لابعاد الفاتحين البيض عن بلاده ،
لا بمجابتهم في ساحات الجهاد والقتال ، ولكن باغداق الهدايا
عليهم والاموال لاقتناعهم بالرجوع الى مراكبهم والابحار الى جهات
اخرى ، فبعث اليهم رسله ليتصلوا بهم ، ويطلعون بعد ذلك على
ما سيكون في امرهم .



في عام ١٤٩٢ ، باشر (كولومبس) رحلاته الى اميركا ،
فاكتشف جزر هايتي وكوبا ، وكانت كوبا القاعدة الاولى التي
انطلق منها الفاتحون الاسبان لاحتلال القارة الاميركية ، ومن كوبا
خرج (كورتيس) مبحرا الى المكسيك .

واختلف الاسبان والبرتغال حول امتلاك العالم الجديد ،

وكانت البواخر البرتغالية في ذلك الزمن تحاول اجتياز رأس الرجاء الصالح لايجاد طريق جديد الى الهند ثم رأت الدولتان ان تحتكما الى البابا اسكندر السادس سليل اسرة بورجيا ، فاخذ البابا يراعا وخط خطا على الخريطة شطر المحيط الاطلسي الى نصفين ، واعلن ان للبرتغال حقا باستملاك الاراضي الواقعة شرقي هذا الخط ، ولاسبانيا حقا مماثلا على الجزر التي اكتشفها (كولومبس) وعلى كل ما سيكتشفه المكتشفون ماوراء تلك الجزر حتى الخط المذكور ، وكان هذا التحكيم من اشهر الامثلة التي وردت من هذا النوع في الحقوق الدولية ، وبموجه لم يزل شعب البرازيل ينطق باللغة البرتغالية ، ولم تزل عشرون دولة في اميركا تتكلم الاسبانية ، وبموجب هذا التحكيم الغريب اقتحم الاوربيون اللاتينيون العالم الجديد .

وفي عام ١٥١٣ ، بينما كان احد القواد الاسبان - واسمه (بالبوا) - واقفا على صخرة كائنة شرق (باناما) ، شاهد في الافق امواجا تتلألأ تحت الشمس ، فاقرب منها ، فوجد بحرا لم تعرف له وقتئذ نهاية ، هكذا اكتشف المحيط الهادي ، ولبس (بالبوا) درعه وخوذته ، وركب حصانه ، واستل سيفه ، ودخل في الماء ... وبذلك اعتقد (بالبوا) انه احتل هذا المحيط ، وادخله في الممتلكات الاسبانية ، ونصب نفسه نائب ملك عليه . وكان من نتيجة هذا الغرور ان قطع رأسه بعد مدة قصيرة .

وفي مطلع عام ١٥١٧ ، اعد القائد (ديبغوفيلاسكيز) الذي

سيصبح فيما بعد حاكما على كوبا - ثلاث بواخر لاكتشاف اراض جديدة ، وسلّم قيادتها (لهرناندس) القرطبي ، فاستطاع هذا الفاتح ان يدخل شبه جزيرة (يوكاتان) وان يجتازها قاصدا السواحل المكسيكية ، ولكنه اصطدم بمحاربين من (المايا) قتلوا مايقارب الخمسين من جنوده واسروا اثنين ، واصيب الفاتح بجراحات بالغة توفي متأثرا بها في كوبا حيث رجع خائبا .

وجّهز (ديبغوفيلاسكينز) حملة ثانية بقيادة نسيب له اسمه (خوان دي كريفالفا) غادرت كوبا في شهر نيسان من عام ١٥١٨ وسلكت الطريق التي سلكها (هرناندس القرطبي) ، وقطعت بلاد (المايا) وبلغت سواحل وطن (الاستيك) بالمكان الذي تقع فيه اليوم مدينة (فيراكروز) ، واستقبل هنالك (كريفالفا) جواسيس اوفدهم (مكتزوما) ، وقد حملوا له هدايا من العطور ، ومسحوق الذرة ، ومعجون الدجاج ، فاهداهم كريفالفا بدوره اطواقا من الزجاج الملون وطلب اليهم ان يأتوه بالذهب ، فزودوه بقضبان صغيرة جدا من المعدن الرنان ، ارسلها الى (فيلاسكينز) ، وعندما شاهد فيلاسكينز ان الغنم لم يعوض من الغرم ، انتهى مهمة هذه الحملة التي كان قد تعهد نفقاتها الباهظة ... حينئذ فكر في تسليح حملة ثالثة ، فكانت هذه الحملة مناسبة لظهور (هرنان كورتيس) على مسرح التاريخ .

* * *

في ذلك الزمن ، بلغ (كورتيس) السادسة والثلاثين من عمره ، وكان قد غادر اسبانيا في التاسعة عشرة مفتشا عن المغامرات في العالم الجديد ، بعد ان فشل في الحصول على اجازة الحقوق من جامعة (سلمنكا) ، واقام في (هايتي) سبعة اعوام مزارعا ، وكاتب عدل ، ثم التحق (بديغوفيلاسكيز) الذي كان قد كلفه نائب ملك الهند ، (حينذاك ابن كولومبس) استكمال اسباب السيطرة على جزر (الاتيل) ، وعين (فيلاسكيز) كورتيس سكرتيرا له في كوبا ، واستقر (كورتيس) في هذه الجزيرة ثماني سنوات ، واثرى فيها بما استطاع الحصول عليه من اراضي استغلها واستغل العبيد فيها ، واختلف مرارا مع (فيلاسكيز) وتصالحا وكانت حياته الخاصة معقدة جدا بسبب علاقته بالنساء وقد تزوج من اسبانية اسمها (كاتالينا خواريس) .

عهد (فيلاسكيز) الى كورتيس بقيادة حملته الثالثة لتعمل باسمه ولحسابه ، وفي آخر دقيقة تخوف من (كورتيس) ، واراد ان يؤخر سفره رغبة في ايجاد قائد يحل محله ، ولكن (كورتيس) قدم ميعاد السفر دون موافقة (فيلاسكيز) ، آخذا على عاتقه قسما كبيرا من النفقات ، بعد ان رهن املاكه واستقرض اموالا في هذا السبيل ..

كانت قوى (كورتيس) تتألف بمجموعها من ١١ مركبا ، يتولى الخدمة فيها ١١١ بحريا ، ومن ٥٠٨ جنود ، و ٣٢ محاربا من حاملي الاقواس ، و ١٣ محاربا من حاملي البنادق و ١٠ مدافع

برونزية و ٤ قذافات ، و ١٦ حصانا • وكان الدليل (انطون دي الامينوس) وهو احد رفاق (كولومبس) الذي سبق له ان اشترك في حملتي (القرطبي) و (كريفالقا) •

غادر (كورتيس) وجنوده عاصمة كوبا في العاشر من شهر شباط عام ١٥١٨ ، وكان اسكندر ذو القرنين مثله الاعلى ، وكل ما كان يحلم به كورتيس هو ان يحقق في العالم الجديد ما حققه هذا القائد الخالد في العالم القديم من نصر مبین • (١) واشترك في حملة (كورتيس) بعض من اكابر الفاتحين ، اشهرهم اثنان لعبا دورا هاما في احتلال المكسيك وقد يكونان من اصل عربي ، هما (بدرو دي الفارادو) و (كريستوبال الولايد) كان (الفارادو) اكثر الفاتحين جرأة واقداما ، يفوق (كورتيس) نفسه بشجاعته ، الا انه كان سريع التأثر والغضب ، شديد الوطأة على الاعداء ، يميل الى القتال المستمر ، ويقتحم المهالك دون النظر في عاقبة الامور ، وكان الاستيـك يسمونه (توناتيوه) أي الشمس • وقد فتح غواتيمالا ، ونظم الحكم فيها ، كما فتح السلفادور وشيد المدن الهامة في هذين القطرين ، واشترك معه بالفتح بعض من اخوانه ، اما (الولايد) فكان ايضا يمتاز بطموحه وبجبه الشديد للاخطار والمغامرات ، وقد فتح هندوراس باسم

(١) نعتقد شخصا ان ذكرى الفتح العربي للانـدلس لم تكن غريبة عن خيال كورتيس (كما سنرى ذلك فيما بعد) .

(كورتيس) ، وعمرها ونظم ادارتها ، واستقل فيها عن كورتيس وعصاه ، حتى قتل في هذا القطر الاخير .

اجتاز (كورتيس) شبه جزيرة (اليوكاتان) دون حرج ، واشترى هنالك من (المايا) اسبانيا اسمه (اغيلار) كان قد غرق اثناء رحلة قام بها ورفاق له عام ١٥١٠ ، ووقع اسيرا ، واسترق وغدا (اغيلار) ترجمانه ومخبره في بلاد (المايا) ثم دخل (كورتيس) منطقة (تابسكو) ، وحاول (المايا) الفتك بالاسبان الا انهم ارتعدوا حينما شاهدوا الخيل لأول مرة ، واستسلموا (لكورتيس) ووهبوا له عربونا لاختلاصهم عشرين امرأة امر (كورتيس) بتوزيعهن على قواده ، واحتفظ لنفسه بواحدة من اصل استيكي اسمها (مارينا) كانت بنفس الوقت وصيفة لاحد رفاقه ، ادت (مارينا) خدمات جلى لكورتيس ، وكانت سكرتيرته ومستشارته الاولى في بلاد الاستيك ، وقد تزوجها ورزق منها اولادا ، وهم اجداد الشعب المكسيكي الحالي الذي يتألف باكثرته من خليط من الدم الاسباني والدم الهندي .

وفي الحادي والعشرين من نيسان ، وصل (كورتيس) الى (سان خوان دي الوا) ، فاتصل به لأول مرة موفدو (مكتزوما) فتظاهر امامهم بمظهر الاله (كئزالكوتل) بعد ان اخبرته (مارينا) بما كان يعتقد الاستيك في هذا الصدد ، واغدق على (مكتزوما) ورسله سامي بركاته ، ووعدهم بخيراته ، وامطرهم بوابل من عبارات الرضى ، ووهب للملك ، عربونا لهذا الرضى ، كرسيا ،

وقطعا من الزجاج ، وقبعة حمراء ، وخوذة احد جنوده طلب الى الموفدين الاستيك ان يملأوها ذهباً ففعلوا ، وكانوا قد حملوا اليه هدايا من (مكتزوما) قرودا ، وانمارا ، وبطا ، وحيوانات اخرى من الذهب ، وقطنا ونسيجاً من القش الملون كما حملوا اليه قطعاً عديدة من الجواهر التي كانت تزين هيكل (هوتيزلوبكتلي) وقناعاً من الزمرد تعلوه ريشة خضراء كان يتقنع بها كبير الكهان عند قيامه بالطقوس ، وكرتين كبيرتين الواحدة من الابريز تمثل الشمس ، والثانية من الفضة تمثل القمر . وعندما طلبوا الى (كورتيس) ، تنفيذاً لاوامر (مكتزوما) ، ان يغادر المكسيك ، اجابهم بان مشيئة الله لايجوز الاعتراض عليها ، او الحؤول دونها ، وانه عازم على الاجتماع (بمكتزوما) في (تينكتلان) عاصمة بلاد الاستيك ..

تأمل (كورتيس) بهذه الهدايا بفرح وكبرياء . لقد كان الفاتحون الاسبان يأمون السواحل الاميركية وارضيتها نشدانا للذهب ، وكانت جميع الرحلات التي قاموا بها حتى تلك الساعة ، خيبة امل ، اذ لم يعثروا على المعدن الثمين بكميات تكفي لسد نفقات الحملة . اما الآن ، فقد شاهدوا الذهب في ايديهم يتدفق من الهياكل كالمياه الجارية .. ومنذ ذلك الحين ، قرر (كورتيس) ان يعصى (فيلاسكز) ، ويستقل بالقيادة ، ويتصل مباشرة بالامبراطور الاسباني كارلوس الخامس ، فيرسل اليه بعضاً من تلك الهدايا ، ويعتبر نفسه نائبا عنه ، هكذا فعل ، وتأكيدها لسلطته شيد في العاشر من تموز عام ١٥١٩ مدينة على الساحل الاطلسي

اطلق عليها اسم (فيراكروز) ، وطبق عليها نظام الممتلكات
الاسبانية ، وفيراكروز هي اليوم اكبر مرافئ المكسيك .

وفي (فيراكروز) قام (كورتيس) باروع عمل امتاز به فتحه ،
وقد ظهر في هذا العمل مقلدا لطارق بن زياد . بعث (كورتيس)
في المكسيك ذكرى فتح العرب للانديس ، فأمر بحرق المراكب
التي اوصلته ورفاقه الى هذا القطر لكي لا يبقى لجنوده الا العدو
امامهم والبحر وراءهم فيتذرعون بالصبر الجميل ويضمنون لبلادهم
النصر المبين .

واكتشف (كورتيس) ، بمساعدة (مارينا) ان الشعوب
المحيطة بتينكتلان قد ملت حكم (الاستيك) وسلطان (مكتزوما)
وحقدت عليه ، وباتت تترقب الفرص للتخلص منه ، فاستغل
(كورتيس) كره هذه الشعوب للاستيك ، ونجح في استتفار
الوف من المحاربين ، واتخاذ رؤسائهم الذين كانوا يلقبون بلقب
(كاسيك) حلفاء له ، ووضع يده على كنوز الهياكل ، وقام
بتحطيم الاصنام ، وتوزيع فتيات من الاسر الكريمة على قواده . .
ففعل ذلك (كورتيس) في جميع المدن التي مر بها ، وخاصة
مدينتي (سامبولا) و (تليكسكالا) وعندما دخل مدينة (شولولا)
حيث يوجد ٣٦٥ معبدا ، واعظم اهرام المكسيك أنهت الى (مارينا)
فتاة استيكية صديقة لها ان (مكتزوما) يدبر لكورتيس مؤامرة
ستودي بجنوده ، فاعلمت كورتيس بالامر ففاجأ الاعداء بهجوم
صاعق هلك فيه سراة المدينة ، وزعمائها .

نقلت اخبار تلك الكارثة الى (مكتزوما) ، وكان لا يدري بعلاقة الفتاة الاستيكية بمارينا فاعتقد ان (كورتيس) يعلم بالغيب وانه حقا له ، وقد حاول ان يبعده عن بلاده بالصلاة ، ثم لجأ الى القرابين ، ثم استعمل الرشوة ، واخيرا دبر المؤامرة ، فكان في جميع مساعيه فاشلا ، ورأى منذ ذلك الحين ان يترك الاحداث تسير كما شاء القدر وان يمتنع عن كل تدبير ... اما كورتيس ، فقد غادر (شولولا) واجتاز الطودين الشاهقين البوبوكابتل ، الذي يسميه الاستيك « الجبل المدخن » والايكستاستيكواتل الملقب بالسيدة البيضاء وكان في شهر تشرين الثاني على ابواب مكسيكو حيث استقبله (كتلاهواك) شقيق (مكتزوما) ، وقاده في موكب فخم الى مكتزوما ، حيث جرت المقابلة الاولى بين الملك الاستيكي والقائد الاسباني . وقد قبل الملك الارض بين يدي القائد ، ظنا منه بانه الرب كتزالكوتل ، واستسلم اليه ، ووهب له اجمل قصوره .. ولم تمض ايام قليلة حتى عمد كورتيس الى اعتبار مكتزوما اسيرا له ، ومارس الحكم باسمه ونيابة عنه ، واستولى على كنوز كثيرة ، واحتجز قواده .. وامتنع حرمته هياكله ، واسند المناصب الكبرى في العاصمة الى انصاره وحلفائه من ابناء تلاكسكالا ، وكان مكتزوما ينفذ ما يشاء كورتيس ، وقد فقد كل طاقة تمكنه من رد الفعل حتى ان كورتيس تجرأ ورفع امامه الاقنعة الذهبية عن اصنام (هوتزبلكتلي) و (تزكتليوكا) .

اقام الاسبان اكثر من ستة اشهر في تنكتلان ، وعلم كورتيس

ذات يوم ان (فيلاسكينز) جهز حملة رابعة يرأسها ضابط اسمه (بانفيلو نارفايز) عهد اليه محاربتة ، واستلام القيادة منه ومعاقبته اذا امكن وقد وصلت هذه الحملة الى فيراكروز ، فتوجه اليها كورتيس مع مائتي جندي واسند مهام القيادة مكانه في تينكتلان الى (الفارادو) *

غادر كورتيس العاصمة في وقت عصب ، كان الاستيك فيه ينظمون سرا مقاومة الاعداء ، والعمل على القضاء عليهم ، وقد دبت فيهم روح الاباء والشهامة والعزة القومية ، والغيرة على التقاليد المقدسة وعلى تراث الاباء والاجداد ، وكان لولب هذه المقاومة وزعيمها شاب لم يبلغ العشرين من عمره اسمه (كوتيموك) أي النسر الهاوي ، ابن الملك (اهويتل) ، وكان (الفارادو) قد بدأ يخشى هجوما صاعقا من الاستيك على رجاله لذلك اراد ان يبطش بهم قبل ان يفتكوا به ، وفي يوم كان الاستيك مجتمعين ليحتفلوا بعيد جليل ، في هيكل (هويتزبليكتلي) ، متوجين بالازهار ، مهللين ، منشدين ، راقصين ، خامر قلب (الفارادو) الشك في ان يكون هذا المهرجان بداية ثورة دائمة ، فأمر جنوده بتطويق الهيكل ، ثم بالهجوم على المصلين بنيرانهم وسيوفهم ، ففعلوا ، وقتل اثر ذلك الوف من وجهاء الاستيك وعيونهم وكادت الثورة تشب في المدينة لولا تدخل (مكتزوما) لاختاد نارها ، واعادة الامن ...

ووفق كورتيس الى كسب قائد الحملة التي جهزها (فيلاسكينز)

ورجالها ، والى اغرائهم بالمال عوضا من ان يقاتلهم ، فانظوا تحت
لوائه وساروا معه الى (تينكتلان) •

وقال بعض الرواة بان (كورتيس) اختلف مع (الفارادو) ،
عندما شاهد توتر الحالة في العاصمة ، وعاتبه عتابا مرا ، وقد
قطع الاستيخ على الاسبان ، وحلفائهم المؤن والغذاء ، واستعدوا
للقتال ، واراد كورتيس ان يحول دون وقوع الحرب ، فاطلق
سراح ابل الاسرى السيد (كويتلاهواك) شقيق مكتزوما واوفده
الى مجلس الشيوخ الاستيخي ليقترح عليهم السلم ••

ذهب كويتلاهواك الى مجلس الشيوخ الذي كان مجتمعا في
الهيكل برئاسة رئيس الكهان ، وعندما وصل اليهم سألهم رئيس
الكهان :

— هل تحمل الينا توصيات ملكنا مكتزوما ؟

فاجاب كويتلاهواك :

— ان مكتزوما قد اصبح كالمرأة ، وهو العوبة بيد الاسبان ،
واني اتيت اليكم لاقول لكم ان عليكم ان تقاتلوا •

فاغتاظ رئيس الكهان ، واشرأبت الاعناق لهذه الاهانة التي
وجهت للملك مكتزوما وكادت اللعنة تنصب على الرسول لولا ان
دوى صوت شاب في الحفل فهزَّ الحاضرين ، كان هذا الصوت
صوت (كوتيموك) يقول :

ان « كويتلاهواك » لعلى حق •• اذا اعتبرنا ان الملك هو

زعيم ، فان مكتزوما لم يعد ملكا ، لانه لم يستطع ان يتصرف كالرجال ..

واشتد الحماس بالمجتمعين ، فحشروا جيوشهم وحشدوا ، وبايعوا كويتلاهواك بالملك ، واستنجدوا بالمواطنين ، واستعدوا ، وجمعوا اطرافهم ، واستفزوا قواهم ، ودقت في ظلمة الليل طبول الهيكل الكبير المصنوعة من جلود الافاعي ، داعية الى الجهاد ، وهاجم الاستيك اعداءهم دون هوادة ، وحاصروهم ، واشتد الضجيج ، وهاج الضراب والطعان ، وعلت المهمة .. فوجيء كورتيس بالهجوم ، وضاق المجال عليه ، واصبح محاطا بالهلاك ، بعد ان اغلق عليه الاستيك جميع الجسور التي تصل جزر تينكتلان بالسهول المجاورة . واراد ان يستنجد بمكتزوما ، فاخرج الملك من سجنه وصعد به الى سطح القصر ، وكلفه ان يدعو شعبه الى الهدوء ... دعا مكتزوما الاستيك الى السلم والسكون فاجابه كوتيموك قائلا :

— لم تعد ملكا ، يامكتزوما ، لانك لست جديرا بان تطاع ..

وبدأت الحجارة والسهام تتراشق على مكتزوما ، فاصيب بجراحات خطيرة ، ونقل الى قصره حيث قتل بعد ثلاثة ايام ، دون ان يعرف على وجه التأكيد من كان قاتله ، فزعم بعض المؤرخين ان كورتيس هو الذي امر بقتله بعد ان تأكد له ان لا فائدة من المحافظة عليه . وزعم مؤرخون آخرون ان المكسيكيين هم الذين اغتالوه في قصره لاعتقادهم انه تخلى عنهم ، وانضم الى اعدائهم .

واستمرت الحرب اسبوعا كاملا ، استعرت خلالها الملحمة ، وتحكمت الاجال ، وكان النصر حليف الاستيك ، وأمر كورتيس بالجلء عن تينكتلان ، وبانشاء جسر متقل لكي يجتاز رجاله عليه البحيرات ، ولحق الاستيك الهاريين الاسبان بسهامهم عند مرورهم فوق هذا الجسر ، وحطموه فوق الاسبان في المياه ، وغرقوا ، وغرقت معهم الكنوز وصفائح الذهب التي جمعوها ايام احتلالهم مدينة تينكتلان ، وخسر كورتيس كثيرا من جنوده ورفاقه ، وجلس تحت شجرة يبكي هزيمته وكان ذلك ليلة ٣٠ حزيران ١٥٢٠ التي عرفت في التاريخ باسم الليلة الحزينة .

• وتدخل القدر من جديد لصالح الاسبان بشكل مريع .

كان بين الاسرى الذين استولى عليهم الاستيك اسباني ابتلي بداء عياء انتشرت فيه العدوى سراعا في المدينة ، فاصيب الشباب والشيوخ افواجا ، وقضى الموت على المقاتلين زمرا اثر زمر ، وكان بين ضحاياه الملك كويتلاهواك ، الذي توفي حين كانت بلاده في اشد الحاجة اليه ، وتوج « كوتيموك » ملكا على تينكتلان ، وكان آخر ملوك الاستيك ورمز بطولتهم الخالد .•

عاد كورتيس الى تلاكسكالا ، وقد اضرم قلبه الاسبان ، وهصر فؤاده الالم ، وتقسمته الهموم ، وتوزعته الفكر ، الا انه لم يترك لليأس الى قلبه سبيلا ، وقد اسرع في جمع شتات رجاله ورأب صدع جنوده ، ووصل نظام انصاره من الهنود ، وصد ببسالة بالغة هجوما جديدا شنه عليه الاستيك في مدينة (اوتمبا) ، اذ اخترق

بنفسه صفوف الاعداء ، وسار نحو القائد العدو وقتله بسيفه ، فذب الخوف في قلوب الاستيك ، وفروا هارين ، مخلفين قتلاهم وجرحاهم على الحضيض . . . وتمكن كورتيس اثناء اشهر قليلة من عزل تينكتلان ، فعقد احلafa مع قبائل عديدة من الهنود ، وعمل على انشاء قوارب ، وزوارق ، ومعاير تفوق بسرعتها مراكب الاستيك وفلكهم التي كانت تجوب اطراف البحيرات ليلا ونهارا ، وفي شهر اذار من العام ١٥٢١ ، سار كورتيس نحو تينكتلان ، وحاصرها حصارا دام اكثر من ثلاثة اشهر ، وقطع على الاستيك مياه الشرب ، واستولى على منافذ الطرق الثلاث المؤدية الى العاصمة ، أي الطريق الغربية التي تأتي من (تاكوبا) وقد اسندت قيادة الجيش فيها الى (الفارادو) ، والطريق الشمالية التي تأتي من (تيبياك) ، وقد اسندت حراستها الى (سندوفال) ، والطريق الجنوبية ، التي تأتي من (كوياكان) ، وقد اسندت قيادة الجيش فيها الى (الوليد) ، وكان كورتيس يدير مناورات السفن .

استعرت نار القتال ، واصطلت المواقع ، وتصاعد الدخان من كل مكان في العاصمة . وكان السكان يحطمون الجسور كل ليلة فيقوم الاسبان باصلاحها في اليوم التالي ، واستبسل الاستيك دفاعا عن بلادهم ، واطهروا من ضروب الشجاعة ما يبهر العقول ، ويثير الدهشة والاعجاب ، وحملوا أنفسهم على المهالك ، وركبوا الاهوال ، وتكاثر جثث الاموات في الشوارع ، وتكومت بعضها فوق بعض ، وانتشرت روائحها الكريهة ، وفقدت المؤن وعمت

المجاعة صفوف المحاصرين ، وهم في ضنك وقشف ، حتى اضطروا الى أكل الحشرات وقشور الأشجار ، واشتد عليهم العطش حتى لجأوا الى المياه القذرة يرتوون منها لينقعوا غلتهم ، ويشفوا حرقتهم . واستطاع كورتيس ان ينفذ الى بعض الجزر فاحرق القصر الملكي ، ثم بلغ دار « كوتيموك » واشعل النار فيها ، وكان قبل كل هجوم يشنه يدعو « كوتيموك » الى المصالحة ، والاستسلام ، فيرفض كوتيموك العرض مجيبا بان القتال مستمر ..

وحاول الاسبان وضع يدهم على حي (تلاتيلوكو) ، فردوا على اعقابهم ، وتركوا بين أيدي الاستيك اسرى ، شاهدتهم رفاقهم من معسكر كورتيس ، بعد يومين او ثلاثة ، لابسين اثوابا بيضاء ومزدانين بالازهار ، يرقصون امام الهرم على شرف (هويتزليبيكتلي) ثم يصعدون سلمه حيث كان يستقبلهم كهان لا بسون ثيابا حمراء ويوثقونهم رباطا ، ثم يشقون صدورهم ، ويخرجون منها قلوبهم بسكاكين السبج الاسود ، ليقدموها قرابين للرب .. واخيرا اجتاز قواد كورتيس سائر الطرق المؤدية الى العاصمة ، وشرعوا بتدمير المدينة بيتا بيتا ، فتهدم معظمها وكان كورتيس يبكي كلما شاهد ذلك ويقول « ياويحنا كيف نقضي على اجمل مدن العالم » وفي مساء الحادي والثلاثين من شهر آب ، وقع (كوتيموك) اسيرا بيد الاسبان ، وحمل في مركب الى كورتيس ، ولما رآه سأله كيف قبل ان تتهدم تينكتلان ، وان يضحى بهذا العدد العديد من الارواح البشرية من الجانبين في حين ان كورتيس كان قد اقترح عليه الصلح مرارا .

فأجاب آخر ملوك الاستيك :

« لقد قمت بواجبي ، عندما دافعت عن بلدي ومملكتي ،
وسيفعل كورتييس ما فعلت انا اذا هوجم وطنه . اما الآن وقد
خسرت المعركة واصبحت في قبضته فعليه أن يأخذ هذا الخنجر
ويقتلني به » .

تلك هي الكلمة التي سجلها التاريخ « لكوتيموك » وقد
اصبح رمزا لوطنه المجاهد .

هكذا زالت امبراطورية الاستيك، ولكن الاسبان لم يستطيعوا
ان يزيلوا العنصر الهندي من البلاد ، فعاشت حضارة (الاستيك)
و (المايا) وغيرهما من الحضارات الاصلية في شخصية الشعب
المكسيكي الفذة ، وتقاليد المجيدة ، وعاداته النبيلة ، وادبه
الرفيع ، وفنونه الجميلة ، وصناعاته اليدوية العجيبة ، عاشت
حضارة الهنود في العبقریات التي لمعت بالمكسيك وفي زعماء
قضايا الحرية ، وكانوا جميعا من دم هندي .

فتح الاسبان مكسيكو عام ١٥٢١ ، وظلوا يتغلغلون في الاراضي المكسيكية ويتوسعون في فتوحاتهم وينظمون المناطق التي استولوا عليها حتى سنة ١٥٣٥ ، حيث سمي (دون انطونيو دي مندوذا) اول نائب للملك .. وبذلك استقر السلطان الاسباني في هذا القطر ، واستمر قائما حتى سنة ١٨١٠ ، وهي السنة التي نشبت فيها الثورة الوطنية بقيادة (هيدالغو) ..

واطلق الاسبان على المكسيك ، او بالاحرى على معظم اراضيها التي كانت تشكل وحدة ادارية كبيرة ، اسم « اسبانيا الجديدة » وتعاقب على كرسي الحكم ثلاثة وستون نائب ملك ، اعترف المؤرخون المكسيكيون بفضل عدد منهم في حسن الادارة ، والذود عن حقوق الهنود ، وتدعيم اسباب التطور والنمو ، وتشجيع العلوم والفنون .

وحدثت خلال المائة والخمس وسبعين سنة التي ظل فيها الاسبان بالمكسيك تغيرات هامة في هذا القطر ، اذ انتقلت الى هذا الجزء من العالم لغة الاسبان ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وثقافتهم ، ودمجت القارة الاميركية في نطاق الاوربيين ومداهم الاستثماري ، فكان اقتصادها تابعا لاقتصادهم ، ومرافقها ملكا لهم ومصيرها مرتببا بمصيرهم ...

ومن أجل تصوير هذه المرحلة من تاريخ الشعب المكسيكي
خصصنا اربع اساطير اصيلة تمثل كل واحدة منها ناحية من حياة
المكسيكيين او قضية من القضايا الهامة التي كانوا يعالجونها في
ذلك الزمن •



العارف بالسر

كان سانشو شاعرا ، والشعر منذ ان تدفق من السماء ، لم يكن في يوم من الايام وقفا على الاغنياء ، ولا على العاطلين ، او الطفيليين ، انما الشعر ، كسائر المواهب الفنية والعلمية ، وكالخط الانيق والوجه الجميل ، يمنحه الله من يشاء ، وكيف يشاء ، ولم يستطع الانسان ان يدرك حكمة الله في تصرفاته ، ولا القاعدة التي يتبعها في توزيع المحن والمتاعب ، والنعم والمناقب ، على عياله الكثر

كان سانشو شاعرا وبغالا بنفس الوقت ، ينتشي بشعره ، ويرتزق من عمله ، آفاقه اناشيده ، وقد خلق منها عالما رضي به ، فغدا فيه كريما ، سعيدا ، وورث من والده بغلين اقمريين ، حققا من الموارد ما ضمن له كفايته من خبز الذرة الناعم المعروف (بالتوريتا) ، ومسحوق الفريخول (١) ، وخمرة الصبر (٢) ، ليكون سلطانا على نفسه ، ويتمتع بخصب ، وخفض من العيش ،

(١) اللوبيا السوداء وهي الطعام الاساسي للمكسيكيين .

(٢) مشروب وطني مكسيكي يعرف (بالبولكي) .

ورغد ، ورفاهة • وكان سانشو شابا يؤمن بما يلعب في عالم
قلبه من مشاعر ، وما يتصاعد في اعماق ضميره من خيالات ،
وينظر الى الكائنات نظرة حب ، ملؤها الثقة والتقدير والاعجاب
ويتطلع الى مستقبل الايام بعين تشع اطمئنانا ، وارتياحا • وكان
ايضا يتعهد نقل البضائع بين القرى الواقعة في منطقتي مكسيو
وتولوكا ، في احراش الصنوبر ، والاوذية ، والجبال •

وكان سانشو يقود بغله تارة مشيا على الاقدام ، ولاهيا
بارسال التحية الى الاجام ، والاكام ، والادغال ، والغياض ،
والقمم ، التي كان يلتقي بها ، في الطريق لقاء الاخ باخيه ، راكبا
على اخف البغلين حملا ، ومنهمكا في قرض الشعر ، ونظم
القصائد الصغيرة التي ارادها ان تضاهي (الهاي كاي) اليابانية
بقصرها وروعتها • وقد قال في الليل :

هي بحر خضم ، ليلتي السوداء هذه

والسحابة التي ترافقني ، وانا سار ، قطعة من الصدف

والقمر لؤلؤة •••

وقال في السحب :

بيضاء ومليئة ،

كأنها على سطح البحر ، في الافق البعيد ،

اشرعة سفينة •

وقال في بغله :

لقد شاهد نفسه في مرآة النهر ،

وكانت المياه صافية زرقاء ،

فظن انه يحمل السماء

على ظهره

وفي ذات صباح غادر سانشو قرية (كاليكستلاهواكا) ،
حيث يوجد هرم مستدير ، قاصدا (تولوكا) للاستفادة من
(التيانكيس) (١) الشهيرة التي تقام كل جمعة في هذه البلدة ،
والتي يحمل اليها الهنود جميع ماينتجون من مصنوعات يدوية
ليبيعوها الى السياح وانباء المدن وكانت المسافة لا تزيد
عن السبعة كيلو مترات ، ونية سانشو ان يقطع المسافة لحسابه ،
دون ان يقبل أي حمل ، وان يقضي النهار في عطلة كاملة ، بعد
ان جنى في الايام السابقة من الارباح ما شجعه على الاستمتاع
بهذه الراحة ، وان يتبضع في (تيانكيس) تولوكا بما يشرح
صدره ، ويقتني ما تنعم به نفسه من مأكول ، وشراب ، وزينة ،
ثم يعود ليلا الى قرينته .

ربط (سانشو) بغليه بحبل ، الواحد تلو الآخر ، حسب
ما علمه والده ، وسار في الطريق الكبرى على بعد عدة أمتار ،

(١) أي السوق الشعبية .

وراء البغلين وكان البغلان يعرفان حق المعرفة تلك الطريق التي
سلكاها مرات لا تحصى •

•• سار سانشو على بعد من البغلين ليتفرغ للشعر وللخيال ••
كان يستعرض بذاكرته (التيانكيس) وجمال الفتيات البائعات ،
وفتة المصنوعات المعروضة للبيع من حصر ملونة ، وبسط رسمت
عليها ادق الاشكال الهندسية ، ووجوه آلهة الاستيك القديمة ،
وأوان من الفخار مطلية بالذهب والارجوان ، وصحون خشبية
نقشت عليها صور من الطيور والازهار ، وارديه مزركشه
بالخيوط الفضية ، ومفارش مطرزة بالحرير ، واثمار مجففة ،
وشراب الموز والمانجا والابوكادو ••• كان يذكر كل ذلك ،
ويذكر ماجنى هذا الاسبوع من مكاسب ، وعطف زبائنه عليه ،
وعظمة البركان (زيناتتيكاتل) القريب منه ، ذلك البركان الذي
يبلغ علوه ٤٥٦٨ مترا ، والذي استطاع ان يصل الى فوهته راكبا
على البغل ، حينما صادفه لصان كانا ينتظران الغنيمة على مقربة
من الطريق في ظل الاحراش الظليل •••

رآه اللسان ، وارادا في بادىء الامر ان يقتلاه ، ويسرقا منه
البغلين ، كما كان يجري في ذلك الزمن القديم ••• الا انهما لما
شاهداه يتطلع الى السماء ، ويتكلم لوحده ضاحكا ، مبعثر
الذهن ، زائف البصر ، فاقد الاتباه ، ايقنا بان الرجل يستحق
التكريم ، وانه جدير بمعاملة خاصة ، فلجأ احدهما الى الحيلة ،
وتقدم خلسة الى البغل الذي كان يمشي في الطليعة ، وفك

رباطه وسلّمه الى رفيقه ، وربط نفسه محل البغل ، وتابع السير الى الامام ..

مضت دقائق ، واستيقظ (سانشو) ، وعاد من عالم الاحلام الى عالم الرشد ، فشاهد انسانا يمشي عوضا عن الحيوان ، فقال له :

— كيف تحولت الى ابن آدم ؟

فاجاب :

« — انا بغلك الامين ، ياسيدي سانشو ، وليس هنالك سر اكنمه عليك ... انا اعرف انك تؤمن بالله تعالى ، وبقدرته على كل شيء . لقد كنت نظيرك عاملا شريفا في المجتمع ، ثم ارتكبت المعاصي ، وتعاطيت الموبقات ، فغضب الله عليّ ، ومسخني بغلا واصبحت ملكا لك ... ولكنني في خدمتك كنت ورعا مخلصا كما يمكنك ان تشهد لي بذلك ، فرضي الله عليّ وغفر .. وشمّلني برحمته ورضوانه ، واعادني انسانا كما كان قد خلقني سابقا » .

حزن (سانشو) حزنا عميقا لما حصل له من مفاجأة حين كان في اشد الحاجة الى بغله ، وقدر خسارته الجسيمة حق تقديرها ، وجرت دموعه من عينيه . لاحظها اللص تنسكب على خده ، فقال له :

« — انا لا اريد ان يصيبك ضرر مما اقره سبحانه تعالى بشأني ، واذا اردت فاني سأبقى لك عبدا ماحييت ، واخدمك بما لدي من وسائل » .

تذكر (سانشو) حينئذ ما سمعه من تعاليم (بارتولوميودي لاسكاسا) ضد الرق ، وجهاد هذا الرجل في سبيل احترام كرامة الانسان ، وقدسية شخصه واعتبار المساواة بالحقوق اساسا للمجتمع . . ثم فكر فيما سيكلفه هذا العبد من نفقات لياكل ويشرب ، ويلبس ، كما فكر في قلة الفائدة منه والمتاعب التي سيجرها عليه وهو انسان ، بعد ان ادى له حين كان بغلا اطيّب الخدمات ، فكّر طويلا ثم قال له :

— لقد منع الرق منعا باتا في بلادنا ، واني على استعداد لقبول التضحية التي فرضت عليّ لقاء عودتك الى اسرة ابناء آدم النبيلة ، وقد اسند اليها المولى جلّ جلاله السلطان على جميع المخلوقات . ارجو ان تحافظ منذ الآن فصاعدا على تلك الاخلاق المحمودة التي لمستها فيك عندما كنت بغلا ، من حب ، واخلاص ، وصبر ، وتواضع . . فاذهب في سبيلك حرا طليقا ، وفقّت في اعمالك وبورك بك .

بقي (سانشو) مع بغله الوحيد ، حائراً قلقاً ، فتوقف امام حانوت صغير وأكل بعض الطعام ، واستراح ساعة من الزمن ، ثم استأنف سيره الى (تولوكا) عازماً على تخصيص ما اقتضده من دريهمات لشراء بغل آخر . . وفور وصوله الى المدينة ام السوق الكبرى وقصد المكان الذي تباع فيه الحيوانات ، وكان بغله اول حيوان وقع نظره عليه في السوق ، معروضاً للبيع مع امثاله . . .

دهش (سانشو) لاول وهلة واضطرب ، ثم هدأ روعه وكأنه
ادرك حقيقة الامر ، وفهم كل ماتم ، فدنا من البغل ووضع فمه
فوق اذنه وقال له :

تباً لك من مارق ائيم ... لقد غفر الله لك ماضي عثراتك ،
وسابق اثامك ، ولكنك عدت وارتكبت باسرع مايمكن من الوقت
معاصي اكبر ، وخطايا اضخم ، فجحدت النعمة ، ونلت العقاب ..
نعم ، غضب الله عليك .. واعادك من جديد الى شكل بغل ،
اعادك الى شكلك القديم ، اما انا فقد اصبحت عارفا بالسر ..
لن اقبلك عندي مرة اخرى وليشترك من لا علم له بما حصل
فيك ...

* * *

رَبِّهِ النِّهْرُ

ما اقدر المياه على الخير وما اغدرها ، وما انفعها ، وما اضرها ، فالمياه هي الخصب ، والجمال ، والثراء وقد جعل الله منها كل شيء حي ، وهي السيول الجارفة ، والبحار الهائجة ، وبالتالي هي ايضا الموت •• المياه قوة من اروع قوى الطبيعة •• عبادتها في القديم الشعوب التي افتقرت الى غيثها وغديرها ، فتضرعت اليها تضرع صاحب الحاجة الى ولي النعمة •• او التي تمتعت بقرائن آلائها ، وزهت بسوانغ عوائدها ، فابتهلت اليها معربة عن آيات الشكر ، راجية دوام النفائس والمواهب •

وليس بين الاقطار قطر كالمكسيك مسّت الحاجة فيه الى المياه ، فالحصول عليها مشكلة هذا البلد الكبرى ، وشغله الشاغل وهمه القائم ، وموضوع تفكيره الدائم ، وتتألف اراضيه من اكثر من مائة وخمسة وتسعين مليون هكتار ، منها مايقارب الثلاثين مليون قابلة للزراعة ، الا انه لا يزرع عمليا فيها اكثر من اثني عشر مليون بسبب سوء توزيع الانهار والبحيرات بين الولايات ، وطبيعة البلاد الجبلية ، وشح الامطار او فيضانها ، وآفات الضرب ، والصقيع ، والجليد •• لقد بذل الشعب جهودا جبارة

لتحسين ما اوجده الطبيعة من شذوذ فحقق مشروعات للري ادت الى كسب ثلاثة ملايين من الهكتارات اضيفت الى المساحات المزروعة ، والطريق لم تزل طويلة جدا لادراك الارب المقصود ، وبلوغ الهدف المنشود ..

واعتمد « الاستيك » ، لتوفير القوت لديهم ، على المطر ، فجعلوا من المطر الها اسمه (تالوك) شيدوا له في عاصمتهم تينكتلان هيكلا انيقا فوق هرم شامخ ... وكان كلما قسا قلبه على شعبه ، حجب عنه المطر ، فيعمل الشعب حينئذ على استدرا عطف الاله ببعث شعور الاسى والرحمة في فؤاده، فيقود الاستيك اطفالا مزدادين بالرياحين ، والرجس ، والزنبق الى هرم الاله (تالوك) ويقتلونهم فيتأثر الاله ، ويبيكي ، وبكاء الرب في العلياء يبشر الارض بالحصول على الماء ، فتتكاثف السحب ، ويتجمع الغمام ، وتسخو السماء بالماء ، وتهطل الامطار هطلانا ، يشفي العليل ويروي التربة العطشى .

هكذا اوجد الاستيك رابطة وثقى بين الدمع ، والدم ، والديم . واحاط المكسيكيون القدماء الانهار والجداول والغدران والبحيرات بهالات من الاكرام والاجلال ، وأوجدوا للتغني بها اساطير تضاهي برونقها وطرافتها ما ابتدعه خيال اليونانيين القدماء ، وشعوب شمالي اوربا الحديثة .. وجميع المكسيكيين يعرفون قصة تلك الاميرة الصغيرة ، الجميلة ، التي كانت تعيش حياة طهر وزهد ، وترفض جميع من كان يتقدم لخطبتها ، وكانت

تأوي الى غدير مجاور يلمع كعين الشمس ، وينساب كسلاسل
الفضة ، تقضي الساعات الطوال في عزلة على ضفافه فتسر اليه
شجونها ، وتبته امانها ، وتبادله مشاعر الحب والاعجاب .. حتى
قيل انها تعشق اميرا مسحورا سجيناً في اعماق المياه ... وفي
ذات يوم اراد والدها ان يضغظ عليها ليزوجها من حليف له واسع
الملك ، عظيم الجاه ، كثير المال ، فذهبت الى الغدير والقبت بنفسها
في احضانه ، ولم تعد الى دارها ، اذ تحولت بعد ذلك الى سمكة
حمرء ...

وقد اخترنا اسطورة من (واخاكا) سنقصها عليكم ، وسوف
يرى القارئ انها تدور حول موضوع من اخطر الموضوعات التي
شغلت فكر المفكرين ، واثارت وحي الشعراء . ان هذه
الاسطورة تدور حول علاقة الانسان بالطبيعة ، فتضع الاول
وجها لوجه امام الثانية . الانسان الذي يعيش بالنسيان والذي
فطر على الجحود والنكران ، وامتاز بحب لنفسه ضيق الآفاق ،
وتقدير لمصالحه محدود النتائج ، وتعلق بسلامته قائم على الجبن
والوجل ، يجابه الطبيعة السمحاء التي تغدق عليه آيات من
الجود وضروبا من الحنان ، وتقابل اساءاته لها بالرحمة وسعة
الصدر ، ونقضه للعهد بالصفح والغفران . ثم تثور ثورة الجبار
حين يتحداها ويستخف بقوانينها ، فتلقي عليه درسا يترك في
جسده الماء ، وفي فؤاده لوعة لن تستطيع ازالتهما الايام .

(واخاكا) اسم لولايلا ومدينة هي قاعدة الولاية تبعد ٥٧٤

كيلو متر عن العاصمة ، وتلقب المدينة بالبلدة الخضراء لان قصورها وسائر الصروح القائمة فيها مبنية من حجر يميل الى لون الزمرد ، وفي (اوغاكا) متحف شهير لحضارتي شعوب المكسيك والزابوتيك يضم الكنوز التي اكتشفت في قبور (موتي البان) والتي شبهها الاميريكون بكنوز (توتنخ امون) .

بطلنا اسمه (انريكي) ، وكان شابا فلاحا وحيدا لاهله ، مدللا ، بهي الطلعة ، بلغ السابعة عشرة من سنه ، يعيش بقريته (سان خوان لامباتييك) تحت جناحي والديه . . .

مرت على هذه القرية سنة قحط وجفاف أعقبتها سنة تكاثر فيها الصقيع ، وعم الفيضان ، وحرم الاهلون حاجاتهم اليومية من الذرة ، وهو غذاء الشعب الاساسي بالمكسيك ، واهم العناصر التي يقوم عليها مطبخهم الشهير ، وطعامهم اللذيذ ، ورأى والدا (انريكي) ان يوفداه الى المدن المجاورة ليحاول ان يقتني مايمكن الحصول عليه من هذا الحب . وخرج (انريكي) من القرية صباح يوم من ايام الصيف ، وسار في طريقه ، مجتازا الهضاب ، والاوودية ، حتى دخل مدينة (تتلا) التي يمر فيها نهر عميق ، مياهه صافية صهباء ، كانها مرآة السماء ، وكانت الشمس قد اوقدت نارها الاستوائية ، فشر بتعب شديد وجلس على ضفة هذا النهر بالقرب من دوحة ، وارفة الظلال ، ليأخذ قسطا من الراحة ، تمكنه من استئناف السفر ، ناعم البال ، هادىء الحال .

هب نسيم عطر كأنه يذيع اسرار العبر ، والسمسق ، والفل ،
وسمعت اصوات بلابل تغرد على الاشجار ، ووقع نظر (انريكى)
فجأة على فتاة هندية في ريعان الشباب ، كانها روضة الحسن ،
وفتنة الوادي ، فأحبها ، وحدثها حديث مقيم ولهان ، واقترح
عليها ان تكون زوجة له . فاجابت بانها بادلتها الحب من اول
نظرة ، وانها على استعداد لتقترن به ، بشرط ان يعدها بان يبقى
في المنطقة التي تعيش فيها ، وذلك لانها لا تستطيع ان تغادرها . .
وقد نسي (انريكى) المهمة التي اوكلها اليه والداه ، واستمر
فؤاده غراما ووجدا ، وقبل بان يعيش بجوار الفتاة الى الابد ،
وتبعها الى دارها ، حيث تم عقد الزواج ، وكان اسمها (ماريما) .

وفي ذات صباح ، قال (انريكى) لماريما اشتهي أكل السمك ،
وخصوصا نوعا من السمك يعرف (بالشبوط) ويسمونه
بالمكسيك وغواتيمالا (البوبو) ، واقترح عليها ان يذهبا الى
النهر ليقضيا ساعة في الصيد . فلبت طلبه ، وخلعت حذاءها ،
ودخلت في الماء ، وكم كانت دهشة (انريكى) عظيمة ، حينما
شاهد القصب الذي ينبت على الضفاف يطأطىء الرأس عند
مرورها اجلالا لها ، والاسماك تخرج من مخابئها ، وتحيط
بماريما ، وتهز جسمها شوقا ، وطربا ، واحتراما ، فتأخذ ماريما
بيدها ما تشتهي منها وتملأ بها اذبال ثوبها .

وعندما عادا الى دارهما ، اعرب لها (انريكى) عن استغرابه
لما شاهد وسألها عن السبب في ذلك ، فاعلمته بانها ربة النهر

تفيض على الروض حياة ، وتزهى بروحها البساتين ، وتنحني لها
الازهار عرفانا بجميلها • وترتوي من مملكتها الخيل والظبا ••
وتضمن لشعب (تتلا) الوديع العزة والرخاء ، ثم طلبت اليه الا
يروح بسرهما الى أحد ، لان هذا السر هو من اسرار الطبيعة •

وعلم والدا (انريكي) من الفلاحين الذين ينتقلون بين (تتلا)
و (سان خوان) بان ولدهما قد اتخذ له مقرا في (تتلا) ،
وتزوج ، فارسلا من يدعوه للعودة اليهما وينبئه ان صحتها قد
سأت •• فلم يلب الولد رغبة والديه اللذين كانا يحبانها حبا
جما •• ولما علمت ماريما بحرص الابوين على لقاء ابنتها ، رجت
(انريكي) بان يعود اليهما في زيارة قصيرة ويحمل اليهما هديه
من السمك النفيس والمال والفواكه والخضار لارضائهما ••
امتنع (انريكي) مرة اخرى عن الذهاب الى داره القديمة خوفا
من أن يناله عقاب او تأنيب •• ومضت اشهر عاش خلالها الزوجان
في سعادة ، وهناء ، وتفاهم ، وتعاون •

وجاء تشرين الاول ، وهو الشهر الذي يقضي فيه واجب
الربة ان تجوب انحاء مملكتها حتى البحر ، لترشد رعاياها الى
الامكنة الملائمة التي ينبغي ان تضع فيها بيضها لتبرز من هذه
الامكنة اسماك جديدة الى حيز الوجود • واطلعت ماريما زوجها
على هذا الواجب القديم ، وابلغته بانها ستبقى مدة ثلاثة ايام
شبه ميتة في فراشها ، وتتولى روحها اداء العمل ، وانه يترتب
عليه ، عند انتهاء اليوم الثالث ، ان يذهب في منتصف الليل الى

ضفة النهر ، ليستقبل الاسماك القادمة ، وان يصطاد منها ما يلزم
لاعداد مآدبة كبرى ، احتفالاً بعودة الربة العروس الى الحياة ••
ف فعل (انريكي) ما اوصت به ماريا •• ولكنه اثناء الايام الثلاثة
التي قضاها وحيدا ، بدا له ان حب الآلهة مضم ، تصحبه
الرغبة ، ويتهدده الملل ، وتحف به الاوهام الضارة •• وحن الى
آله ، واصحابه ، وحقول الذرة ، والنخيل في قريته واستأذن
ماريا ليغادرها بدوره لزيارة والديه فترة من الزمن ، فاذنت له
ماريا في السفر ، وزودته بهدايا ثمينة لاهله ••

وصل (انريكي) الى دار والديه في ليلة من ليالي تشرين
الثاني ، فاستقبله والده بالزغاريد ، والاناشيد ، واقاما الزينة ،
ورقصا في الساحة على اشجى الالحن الشعبية ، ولكنهما رفضا
قبول هداياه قبل ان يعدهما وعدا صادقا بان يبقى عندهما على
مر الايام ، ويتزوج بمن يرضيان له بها زوجة وان يقضي العمر
حيث عاش في الماضي الاباء والاجداد •• فحزن (انريكي) ،
وعزم على العودة الى (تتلا) ، فهدده والده باللجوء الى السحرة ،
للحؤول دون سفره ، واثارة النمرور والشعابين عليه ، والفتك به في
الطريق اذا اصر على الرحيل خلافا لارادتهما •

لم يكن (انريكي) شجاعا ، ولا رجلا وفيا ، امينا على العهد
لذلك خضع لانانية والديه ، وتزوج من قروية اختارها له •

وكانت (ماريا) تنتظر عودة زوجها قلقة ، وعندما تأخر عن
الموعد المقرر للقائها ، خشيت ان يكون قد مرض او اصابه ضرر ،

وكانت تحبه حبا راسخا كالطود ، فحاولت ان تتحرى اخباره من اصدقاء لها زاروا قرينته ، فبلغها انه قد نسيها ، واتخذ سواها رفيقة لحياته . . . فتألمت لهذا النبأ المأ عميقا ، ظهر بشكل ضباب كئيف قائم اخفى عن المنطقة اشعة الشمس ، وبكت بكاء كثيرا ، ادى الى فيضان النهر ، وقد غمرت مياهه السهول ، واتلفت الزرع ، وهدمت دورا عديدة ، واغرقت المواشي . . . ولما شاهدت ماريما نتيجة دمعها ، ندمت على ما فعلت ، ولكنها لم تكن لتستطيع ان تتمالك شعورها ، وكانت تعلم بان الكائنات ، بما في ذلك ربات المياه ، كلما عظم شأنها ، زاد بطشها . . . ندمت (ماريما) وعزمت على ان تنتقم من (انريكي) ، ناكر الجمل ، وخائن العهد .

مضت سنوات عديدة ، واصبح (انريكي) ابا لاربعة اطفال ، امتازوا ببهاء طلعتهم ، وسرعة خاطرهم ، وقوي بنيتهم ، . . . وقد نسي الربة الجميلة وحبها ، والايام السعيدة التي قضاهما بجانبها ، والوعد الذي قطعه لها . . . وذهب ذات يوم ليصطاد في النهر ، فظهرت له ماريما من اعماق المياه غاضبة صاخبة ، صعق انريكي ، عندما شاهدها ، خرا راعا يلتمس الغفران والمعدرة ، واذ ان ماريما ظلت على حبها له والمحب ينسى الالساء ويصفح ، فانها غفرت له ، ووعدته بان تتولاه برعايتها ، وتحميه ، وان تقبل بما فعل ، وتقر ماقرر من التزويج بغيرها . . . انها قبلت كل شيء ، وسمحت له بان يصطاد في كل مكان ، الا انها فرضت عليه ان يأتيها بجرة من النييد ، وبصندوق من السيجار الفخم الذي يصنع

في فيراكروز ، وبقنبرة مذبوحة ومعدة للطبخ ، وبصحن من معجون الذرة •• وان يضع كل ذلك على ضفة النهر في جهة دلته عليها ••• وعد (انريكي) بان يحقق في اقرب وقت ، طلب من احبته واحبها ، وعندما رجع الى داره ، وشعر انه في امان وسلام ، رأى ان يؤجل تنفيذ مشيئة (ماريا) الى الغد ، وفي اليوم التالي ، انصرف الى اعماله دون ان يفكر في الذهاب الى النهر ، وكذا فعل خلال الاسبوع كله ، وتعاقبت الاسبوع ولم يعد انريكي يرى ان هنالك ضرورة للاجابة الى رغبة ربة النهر ••

ومضى على هذا الحادث سنة كاملة ، ثم سنة اخرى ، وسنوات عديدة ، واجتاز انريكي سن الكهولة ، وبلغ اولاده سن الشباب ، وكان من حين الى آخر يذكر الفترة التي عاش مع ربة النهر كأنها حلم زال ، فيرتسم في مخيلته جمال تلك الفتاة التي ضحى بحبها على مذبح مصالحه الخاصة ، واناية والديه ، ومخاوفه وتلاشى بعد ذلك الصور كالدخان ••

وجاء دور ابنه الاكبر لكي يتزوج ، واراد انريكي ان يحتفل بقرانه في حديقة غناء ، على ضفة النهر •• وأعدت الاطعمة الشهية من رز ، وفليفلة محشوة لحما ، وطاووس مشوي ، والاشربة من (تيكلا) و (بولكي) وجيء بجماعة المارياتشي (١) بالبستهم الوطنية ، وقبعاتهم العريضة الجوانب وآلاتهم الموسيقية الشجية ،

(١) يقصد بذلك الموسيقيون الشعبيون بالمكسيك .

واتنظم عقد المدعوين ، وعم الفرح صفوفهم ، وعلت اصوات
المغنيين ، وفي جو مفعم بالانشراح والطرب ، خرجت من النهر
غادة غيداء ، رقرافة ، على جانب عظيم من البهاء والجمال ،
وتوجهت نحو اولاد (انريكي) وطوقتهم بذراعيها ، وقادتهم الى
النهر ، حيث اختفوا جميعهم واختفت الى الابد . .

* * *

عجالة التحميم

اعلم ، لا حرمك الله من بر مرفوع ، ودعاء مسموع ، بأن
اجمل اقطار الغرب قاطبة المكسيك ، واجمل ما في المكسيك
الاصليون من ابناء شعبها ، اولئك الذين زادوا عن اراضيهم
ببطولة فائقة ضد اعظم الغزاة الاوربيين والاميركيين بطشا ،
ثم صالحوا الغزاة ، واطعموهم من جوع وامنوهم من خوف . . .
وان اروع ما ازدان به وجه هذه الارض الصبوح الباسم ،
البراكين ، تلك البراكين التي استهوت الدكتور اتل . وهو اعظم
فنايي القارة الاميركية الاحياء ، وان انفس ما انطوت عليه بطون
الارض المكسيكية الفضة . . . وان ثلث الفضة التي تظهر سنويا
في العالم يأتي من المكسيك ، وان فضة المكسيك هي اللجين
مذاقها عذب ، صافية الطنين ، لا يشوبها صمم ، وهي تقطع العطش
اذا مسكت في الفم^(١) ، وكما ان سر عبقرية رسامي النهضة

(١) قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري في كتاب
« التبصرة بالتجارة » : « خير الفضة اللجين ، ومذاق الفضة الصافية
عذب ومذاق الزيوف مر صدي . . . والفضة صافية الطنين
لا يشوبها صمم ، وهي تقطع العطش اذا مسكت في الفم » (طبعة
دمشق ص ٨) .

الايطاليين ، وخصوصا رسامي مقاطعتي (التوسكانا) و (الامبريا)
يستغل على الفهم الا تحت سماء ايطاليا ، كذلك لا يمكن ان
تقدر جمال فضاء المكسيك الا تحت سماء المكسيك ، فترى في
بريقها سحرا يستوقف الانظار ويبهرها ، وفي روتقها روحا تتصل
بروح الكون الذي لا نهاية له بخيوط ماسية ، وتنعكس على
سطحها الانوار ، والاشجار ، والازهار ، بالوانها الزاهية ،
وتحولاتها الفاتنة .

واعلم ، اقال الله عثرتك وبدد غمتك ، ان اكتشاف الفضة
والذهب ، وسائر المعادن ، منذ الفتح الاسباني ، كان في غالب
الاحيان ، نتيجة للمصادفة ، وكان بيع هذه المعادن في البلاد
الاجنبية ، يؤلف تسعين بالمائة من صادرات المكسيك في ذلك
العهد ، وان استثمار مناجم الفضة والذهب قد اتاح لعدد من
المهاجرين الاسبان والمكسيكيين بان يجنوا ثروات تضاهي
بضخامتها ، بالنسبة للاجيال الماضية ، ماتملكه حاليا شركات
البتروال العالمية ، وكانت تعتبر اكبر الثروات في العالم القديم ،
وكان اصحاب مناجم الفضة يتمتعون بامتيازات مخيفة ، اذ
منعت الحكومة جسهم ، مهما فعلوا ، كما منعت حجز اموالهم ،
ووضعت تحت تصرفهم جميع ما احتاجوا اليه من عبيد ، وعمال
مسخرين لاستثمار مناجمهم ، لقاء خمس انتاجهم . كانت تقاضاه
الدولة الاسبانية رسما ملكيا ، وقد انتجت المكسيك خلال الحكم
الاسباني (١٨٩,٦٥٨,٥٧١) كيلو غراما من الفضة . . . وكان
منتجو هذا المعدن الثمين لا يعلمون كيف ينفقون اموالهم ،

فمنهم من كان يشيد كنائس او اديرة للرهبان هياكلها وسقوفها
وابوابها من الفضة ، ومنهم من كان يبني قصورا او احياء بكاملها
او ساحات ، او حدائق ، ومنهم من كان يتعاطى الميسر ويرتكب
المزلات ... جهات الصرف كانت عديدة امامهم ، وقد فكروا
ببذل الخير على جميع المشاريع باستثناء مشروع واحد حجبت
عنه النعم ، هو مشروع انصاف العامل ، وتحسين احواله ، ورفع
مستواه ، وتوفير اسباب حياة انسانية له ...

وكانت مدينة (غوانا خواتو) التي تقع في قلب المكسيك ،
اشهر مركز لانتاج الفضة ، وكان منجم (فلانسيا) في ضواحيها
اغنى مناجم الفضة في الدنيا ... و (غوانا خواتو) اليوم هي
بلدة يعشقها زوارها لانها حافظت اكثر من أي مدينة اخرى على
طابعها الاسباني العربي ، شوارعها لم تزل كما كانت عليه في
في القرن السابع عشر ، ضيقة ، تصعد تارة ، وتنزل تارة ،
وتعلوها من مسافة الى اخرى قناطر حجرية ، والشرفة من كل دار
تتصل بالشرفة المواجهة لها . اما القصور فهي باقية على طرازها
الاندلسي القديم ، ومنها الصحون الغناء التي ترتفع منها اعمدة
الرخام ، واشجار النارج والبرتقال والليمون ، وتكسوها الورود
والياسمين ، وفيها القاعات الفسيحة التي يغطي جدرانها الخشب
المنقوش الملون ، وفيها البرك المنمقة ، والزخارف العربية ،
والفسيفساء ،

في (غوانا خواتو) جرت الحوادث التي سنرويها الآن ..

سنبداً ، اذا شئت ، عندما دقت ساعة (البلاسا مايور) — أي
الساحة الكبرى — الثانية عشرة — منتصف الليل ، في جو
رهيب من السكون والوجوم ، بينما كان البدر يطل من وراء
السحاب ، ويحول بعض الغيوم السوداء التي مزقتها الرياح الى
قطع من الفضة والواح من البلور .. اقول لك اني لا اؤمن
بالاشباح ، الا التي اراها .. كانت الشوارع خالية ، خاوية من
الطراق . ولم يكن يُسمع فيها سوى وطء اقدام حارس الليل .
وصوت عصاه الملبس طرفها السفلي حديثا تفرع الحضيض ..
وبالقرب من ساحة تحيط بها عمالقة من الاشجار ، انفتحت فجأة
ومن تلقاء نفسها ، كأن هنالك أيديا خفية تحركها ، ابواب خان
ضخمة الحجم ، قرقت جوانبها ، وصرت اقفالها ، وخرجت من
ورائها ، مخترقة امواجاً كثيفة من الدخان ، عجلة غريبة الشكل ،
يقودها حصانان هائجان ، اسودا اللون ، كأنهما شيطانان ، ينصب
العرق من قونسيهما ، ويسيل الزبد من خطميها وشذقيهما ،
وتتصاعد النيران من اعينهما .. وشوهد عند مدخل الخان قزمان
احمران عاريان يدفعان بمؤخرة العربة الى الامام ، حتى اذا بلغت
الساحة ، اختفيا ، واخذت العربة تعدو محدثة ضجيجا يشبه
انفجار البارود ، وكانت تقدح بدواليبها احجار الازقة ، فيتصاعد
منها الشرر ، ولعل اغرب ما في هذا المشهد قائد العجلة .. قائد
العجلة روح شاردة اخذت شكل هيكل عظمي ضخم ، يكسو
جمجمته الغليظة كفن ابيض ينزل حتى الكتفين ، وكان يقبض على
سوط لونه كالفحم ، يضرب به الحصانين ضربا مطردا ، فينطلقان

بسرعة ، غير مكترئين بمن تلقي العجلة بهم من المارة .. وتجتاز العجلة شوارع المدينة ، وازقتها التاريخية كزقاق القبل ، وزقاق الكونتيسا ، وزقاق الشيوخ ، وساحات الاسلحة ، وسيدة غوانا خواتو ، والشكنة ، تاركة وراءها غيوما من الكبريت تدخل روائحه السيوت من نوافذها .

كان هذا الحادث يتجدد كل ليلة من الليالي القمرية ، ويشاهد الاهلون العجلة والشبح ، فتمتلئ قلوبهم ذعرا وهولا ، وما كانوا ليجدوا لهم وسيلة للتخلص من هذا المنظر ، سوى الصلاة ، لانهم كانوا يعلمون حق العلم بان تلك الروح الشاردة هي روح الثري صاحب مناجم الفضة العديدة (ملكور كامبوزانو) .

كان (ملكور كامبوزانو) مهاجرا جاء من اسبانيا ، يدفعه الى العمل في (غوناخواتو) نشاطه الممتاز ، وذكاءه الحاد ، ووجهه للمغامرة ، فنجح في التجارة نجاحا تاما ، وشارك مهاجرا آخر اسمه (مانويل كابريرا) ، وتوفق الرجلان في اكتشاف مناجم من الفضة واستثمراها استثمارا كفل لهما ثروات طائلة .. وكان (ملكور) شديد الحرص على المال ، عرف بفظاظة قلبه ، وقلة عطفه على الفقراء وبخله المتنن ، وكان يحرم نفسه الكساء والغذاء ، ويغلق ابوابه امام جمعيات البر ، وقيل ان سائله محروم ، وقاصده مذموم ومطبخه قفر ، وكان يجد لذته الوحيدة في تأمل اكوام الذهب الوهاج التي خباها في قصره المنيف ، والتي كانت تزداد حجما يوما بعد يوم ...

وحدث ان اشرف شريكه على الموت دون ان يكون له ولد ،
فاستدعاه الى منزله سرا واقترح عليه ان يهب له جميع ماكان
يملك من المال ، بشرط ان يوزع هذا المال بعد وفاته على الفقراء ،
وان ينفقه حتى آخر درهم في سبيل البر والاحسان ، فقبل
(ملكور) واخذ على نفسه عهدا بذلك .. وانتقل الشريك بعد
ايام قليلة الى جوار ربّه ، غير مأسوف عليه .

وتغير سلوك (ملكور) بعد وفاة شريكه دون ان يعلم الناس
لذلك سببا .. فاصبح معطاء ، طلق اليمين ، ندي الكفين ،
ماعرف البلد من قبل مواطنا او مهاجرا اطول باعا فيه بمعروف ،
ولا اكثر جودا منه لطالب ، وقد اغدق ضروبا من الاحسان على
البؤساء ، واوقف الخيرات على بيوت الله ، والصوامع ، والتكايا ،
وكسا العراة ، واطعم الجائعين ، وتعهد انشاء المياتم للاطفال ،
والمعاهد لتعليم الهنود ، والمستشفيات للامراض السارية ، فكثرت
محبة الشعب له ، وعلا صيته في الولاية ، وازداد عدد اصدقائه
ورواده ازديادا ملموسا ، وكان هو الرجل الوحيد الذي يعلم
بان كل ماكان ينفقه في خدمة البشر ، انما كان ينفقه من مال
شريكه ، ويكسب هو التقدير والثناء .

واذ لم يكن هذا المال ماله ، فان خياله كان خصبا جدا في
ابتكار الوسائل التي يمكن ان تبدد ثروة شريكه ، فتولى في
ذلك الزمن مساعدة المسافرين المنقطعين ، وشد ازر المشوهين ،
واسعاف المعتوهين ، وكان في بادىء الامر يهزأ بنفسه ، ويستخف

بالمجتمع الذي كان يبجله اعظم تبجيل ، ثم عمد الى تصديق ما كان يطلق عليه من مديح واصر على ان يكون موضع اكرام واجلال ، وحصل من الملك على فخيم الالقاب ، وسامي الرتب ، فكان غضب الناس ينصب على من يغضب عليه ، ورضاهم يحف بالمقربين منه ، وتغنى الشعراء بمناقبه ، والكتاب بحسناته ومحاسنه ، وسميت الشوارع باسمه ، وغدت حياته مضرب الامثال ، وسيرته مثلاً يقتدى به ، ونبراسا يعمل بهديه ، فرسم الرسامون صورته لتعلق على جدران المؤسسات التي احدثها ، وتفاخر الحكام بصداقته ، ووضعت الجمعيات الخيرية تحت رعايته ، وازدحم على ابوابه اصحاب الحاجة ، وتسابق سراة البلد ، وعلية القوم ، واهل الرأي الى الاشادة بفضائله ومحامده ، وبيان مفاخره ومآثره ... وفجأة توفى (ملكور) ...

نعاه الناعون ، وبكته النساء والاطفال ، وحزن على فقده الرجال ، وكان رزءاً ملاً الصدور اسي ، وترك النفوس مولهة ، واقامت البلدة له مآتما ، اشترك فيه الحكام والرعاة معا ، والشيوخ والشباب ، وعندما بدأ الكاهن بالصلاة عليه في الكنيسة ، ارتفع صوت رهيب من داخل النعش . وكان هذا الصوت يقول :

« سوف يكون من الصعب عليكم ان تستمطروا على روحي رضوان ربي .. لقد خدعتكم وخذعت نفسي ، اني لم اكنف بان اكون جاحدا لفضل ربي ، جشعا طماعا ضنياً بما اعطاني

الله من مال .. انما اردت ان اتناول على خالق البشر ، فاستغليت المواهب التي خص بها سواي ، والسعي الذي بذله شريكى في حياته ، لما يفيد انانيتى ، ويخدم سمعتى ، فكنت كريما بمال غيرى عزيزا بما قام به من جهد ، مستثمرا استثمارا حقيرا لما جمعه من ثروة ... لقيت وجه ربي ذليلا ، نادما . ولن تستطيع نفسي ان ترتاح ، وستبقى شاردة تأثها ، تتلظى بالآلام ، وتطوف انحاء هذه المدينة في الظلام ، الى ان يمن الله عليّ بالرحمة والغفران والسلام .. »

مضت سنوات عديدة ، واجيال ، وحتى هذا اليوم يقول بعض المواطنين في (غوناخواتو) بانهم شاهدوا في ليلة من الليالي المقمرة عجلة (ملكور كامبوزانو) تمر بالقرب من ديارهم وتبث فيها روائح الكبريت والنار ...



تحتناكنا

كان صديقي فرانشيسكو .. يقرأ لي قطعة من نظمه قال فيها :
« قضيت الحياة باحثا ، ويا بؤس حالي ، لو وجدت ما ابحت
عنه .. واللذة ، كل اللذة ، في الرحيل الدائم ، في السفر المستمر
وما الوصول الا خيبة امل تنتظر الراحل ، وراحة ليس لها معنى
لمؤمن .. والعزة ، كل العزة ، في جهاد لا نهاية له ، وما النصر
الا عدوة لجهاد آخر .. لكل انسان غاية ، انما الحياة كلها مراحل
وكل هدف يسجل ، انما هو قوة تساعد على تخطي مرحلة اخرى ..
الغاية ... انما نجدها بعد الموت » *

— المههم الا تقف ..

— اذا وقفنا فالدهر يسير بنا ، او يقودنا بحبل ربط في

رقابنا ...

سكت صديقي فرانشيسكو قليلا ثم مضى يقول :

في بدء تاريخ المكسيك الحديث ، قضية ، أو بالاحرى مأساة
يدور حولها بحث ، وتفتيش ، وتنقيب ، ولم يزل هذا البحث
قائما حتى الآن ، واغلب الظن انه لن ينتهي ... بحثوا ، وبيحثون
عن كنز (مكتزوما) ، ولم يعثر احد على شيء منه .. علمت ،

ولا شك ، بان (كورتيس) فاتح المكسيك ورجاله كانوا قد بلغوا ، اثر مقتل (مكتزوما) عاهل مكسيكو ، بان ملوك (الاستيك) جمعوا كميات من الذهب واحجارا كريمة ، وتحفا قديمة لا تحصى ، ووضعوها في مخبأ لم يكن يعرف سره سوى الملوك أنفسهم ، وعدد قليل جدا ممن لهم صلة وثيقة بهم . . . وعندما وقع (كوتيموك) ، آخر ملوك الاستيك وزعيم المقاومة ضد الاسبان ، بيد رجال كورتيس ، اراد الاسبان ان يعرفوا منه اين هي تلك الكنوز ، فكان دوما يرفض الجواب عن هذا السؤال . . . وفي يوم من الايام ، اخذوا بكوتيموك وبنائبه (تنليل) وبرفيقه الاقرب (تيتلينكتزين) الى غار ، وجردهم من ثيابهم ، واوثقوهم ، والقوا كلا منهم فوق منضدة تصل حتى ركبته وبذلك تبقى رجلاه معلقتين ثم سألوهم :

— اين هي كنوز مكتزوما ؟

نظر كوتيموك الى الرجل الذي وجه اليه الكلام نظرة طويلة ، وسكت . . .

احضرت مواقد ضخمة من النار الملتهبة ، ووضعت رجلا كل من كوتيموك ورفيقه على موقد ، وبدأ التعذيب ، وتصاعدت الى السماء روائح اللحم البشري المحترق . . . وكان هنالك رجل يقوم على اذكاء النار ، وصب الزيت على الجراح . . . وسئل كوتيموك ورفيقيه :

— اين هي كنوز مكتزوما ؟

سال العرق على جبين اولئك الاستيك ، وكان عرق من
يحتضر ، وظلوا صامتين برهة من الزمن ... ثم صاح (تنليل)
صيحة دعر ، وتهد •

فاقترب منه رجل وسأله :

— اين هي كنوز مكتروما ؟

فقال (تنليل) لكوتيموك :

— سيدي ، لم اعد اقدر على المقاومة ، لم اعد اقدر على
تحمل الالم ••

فاجاب (كوتيموك) :

— وهل تعتقد اني نائم على فراش من الورد ؟

وضغط تنليل على شفثيه ، واسلم روحه دون ان يتكلم ••
واستمر الجمر يأكل ارجل المناضلين وسيقانهم في جو رهيب من
السكوت لم يكن يسمع سوى هينمة الانفاس ولا يرى سوى
لهيب النار •••

وفتح فجأة مدخل الغار ، ودخل رجل عليه سيماء قائد ،
وصاح :

« قفوا •• لا يجوز ان يعامل ملك مثل هذه المعاملة ••
واني آمركم ، نيابة عن كورتيس ، بان تفكوا قيدهما ، وتواسوا
جروحهما •••

سكت قليلا فرانثيسكو ... فسألته :

— هل تعتقد ان اللوحة الجيطة الكبرى التي رسمها (سيكيروس) على جدار قاعة قصر الفنون الجميلة بمكسيكو تمثل هذا الحادث التاريخي تمثيلا صادقا ؟

— اني اسباني الاصل ، والثابت ان اسبانيا لم تكن راضية عن تصرف الفاتحين ، وقد انبهم الملك كارلوس الخامس ، والملوك الذين اتوا بعده مرارا ، واحيل بعض الفاتحين الى المحاكم اما تعذيب (كوتيموك) ، فلم يكن كورتيس نفسه مرتاحا اليه ..

وقال لي فرانثيسكو :

— هكذا لم يعرف حتى الآن احد اين هو ذهب مكتزوما ومن حين الى آخر يتولى رجل يدعي العلم بالغيب ، والاتصال بالارواح ، او تتولى شركة يحركها رجل من هذا النوع ، تقديم طلب الى المسؤولين للحصول على رخصة للتجري عن كنوز ملوك الاستيك ، ثم يفلس بعد ذلك الرجل وتفلس الشركة ، ويبقى سر هذه الكنوز مكتوما ، مصونا ... مصونا الى الابد ... وقد لاتكون هنالك كنوز ... او تكون قضية الكنوز خدعة ، او وهما ، غير ان تلك القضية ما تزال تشغل الافكار وتملا الاخيلة . انهم يفتشون ، ولكنهم لن يجدوا البتة ، انما هم سينعمون بفضائل البحث المستمر ، وبمزايا الانتظار الدائم ، وبجمال الامل الذي لن تخمد جذوته ..

تناولنا بعد ذلك مع فرانثيسكو طعام العشاء في مطعم قريب من شارع (خواريس) •• وهو الشارع التجاري الاكبر بالعاصمة ، واتخذ حديثنا طابعا من الود محسوسا •• قال لي فرانثيسكو :

— اريد ان اعلمك بان في (آسيندا) (١) زوجتي ، القرنفل (٢) كنزا مدفونا ايضا ، يفتشون عنه منذ القرن الثامن عشر •• ويعيش الكثيرون الآن في امل العثور عليه ••• سأروي قصة هذا الكنز بالاستناد الى مادوته صاحبة « الاسيندا » في كتاب خاص عن الاساطير والاحاديث والتقاليد الشعبية والريفية التي جمعتها في المنطقة •

تقع مزرعة « القرنفل » في ولاية سان لويس بوتوسي •

« والقرنفل » هذه هي ، رغم صغر مساحتها ، من اشهر المزارع المكسيكية ، التي بقيت ملكا لاسرة واحدة منذ ١٥٠ سنة ، يتناقلها جيل عن جيل ، ويحافظ عليها ، ويزيد في انتاجها وينمي طاقتها ويتركها الى الجيل الذي يليه ، فيقوم بنفس الواجب تجاه السلف والخلف ، وقد كانت ، قبل ان تستلمها اسرة زوجتي ، قاحلة تأكلها الاعشاب اليابسة ، وحدابا غليظة تئاثر عليها الاشواك ، وتكاثر فيها الشعايبين •

(١) عقار زراعي يضم في غالب الاحيان مزرعة كبيرة وملحقاتها

من دور سكن ومستودعات •

(٢) اسم مستعار للمزرعة •

تبدأ قصتنا عندما كانت باخرة تحمل مهاجرين من الاسبان ترسو في ميناء (فيراكروز) ، وكانت انوار الظهيرة المشرقة العذبة تكشف الستار من بعيد ، بين الرمال والسحاب الشفافة المبعثرة في السماء الصافية ، عن شبح بركان (الستلايتيل) ، المسمى « بهضبة النجم » ، وهو اعلى قمة بالمكسيك (٥٥١٠ متر) تطل على الروابي الخضراء التي تتمايل من فوقها اشجار الموز ، والليمون والنخيل ، وعلى متون قصب السكر، والقهوة والذرة .

ونزل راكب الى اليابسة اسمه « دون روفينو » ، بلغ من الكبر عتيا ، وبجانبه ولداه الشبان ، وقصدوا اول فندق امكنهم النزول فيه ، واقاموا بالفندق مدة من الزمن ، دون ان يكثرثوا اقل الاكتراث بايجاد عمل يضمن لهم القوت .

لم يأت هذا الشيخ الهرم الى العالم الجديد ليسعى وراء كسب يومي ، ولا ليؤسس زراعة او صناعة ، او تجارة ، او ليقوم بخدمة . . لقد كان قبل مغادرته مدينة (بورنمس) الاسبانية ، حارس سجنها ، وقد حمله احد المحكوم عليهم بالسجن المؤبد وثيقتين خطيرتين اراد ان يسلمهما الى ملك الاسبان ، وذلك قبل وفاة هذا الجاني بايام قليلة ، ولكن الحارس آثر ان يحتفظ بهاتين الوثيقتين لديه ، بعد ان اطلع عليهما ، وعرف مضمونها ، وسبب سفره الى المكسيك يعود الى ماقرأه في هاتين الوثيقتين . .

لم يمض على وجود الرجل وولديه اسبوع في فيراكروز ، حتى اصيب الشيخ بما يسمونه الحمى الصفراء واشرف على

الهلاك .. واذ كان على علم بما يشعر به من بغضاء ، وحقد ، كل من ولديه تجاه الآخر ، ورغبة منه في توثيق عرى التضامن وتوحيد المصالح بينهما توثيقا لن تقوى الايام على النيل منه ، فقد استدعاهما ، وهو على فراش الموت وقال لهما :

« ولدي ، ان الوثيقتين اللتين شاهدتهما معي ، انما تتضمنان معلومات دقيقة صريحة تمكنكما من ايجاد اثمن الكنوز التي انطوت عليها بطون الارض في هذا القطر ، وقد استلمتهما ممن ملك الكنز ، وجمعه قطعة قطعة مغامرا بحياته كل يوم ، بل كل ساعة ، وتولى شخصيا الاشراف على دفنه .. وقد اراد ان يهديه للملك كفارة عن ذنوبه وجرائمه وابتغاء لرحمة الله ورضوانه ، اذ كان الرجل لصا مشهورا ... فاليك ايها الابن البكر اسلم الوثيقة الاولى التي دون فيها الشقي سيرته وسجل مايجب القيام به للعثور على الكنز ، وستصبح هذه الوثيقة عديمة القيمة اذا لم تقرن بالخرائط التي رسم فيها المكان الذي دفنت فيه تلك الثروة الهائلة ، واليك ياولدي الاصغر اسلم الوثيقة الثانية التي رسمت فيها الخرائط ، والتي تفقد كل فائدة اذا لم تدرس على ضوء البيان الوارد في الوثيقة الاولى .. هكذا سترغمان على ان تبقيا متحدين وتتعاونوا على اكتشاف هذا الكنز الذي سيوفر لكما المجد والرفعة اذ كل وثيقة تكمل الاخرى ... وفي الجمع بينهما تحقيق المنى والنصر .. »

توفى الاب ودفن ، واتفق الاخوان على الاشادة بمحبته

لهما ، وحرصه على سعادتهما ، وبكيا ، متحدين ، ادعما سخية
على فقده ، وحرنا ، مشتركين ، على وفاته ، وعزما مخلصين على
استئناف سفرهما الى ولاية سان لويس بوتوسي ، حيث توجد
مزرعة « القرنفل » وقد تبين لهما من الوثيقتين ان في بقعة من
اديمها قد دفن الكنز الذي باتا يتوقعان ان يفتح لهما جميع
الابواب ، والقلوب ، ويحني امامهما الرؤوس ، ويقيهما شر
الليالي ، ويسخر لرغباتهما الدهر ..

عاشا اخوين متحابين ، قدر استطاعتهما على اسكات الهوى ،
ثم تجادلا لمناسبة هطل الامطار ، وتلاسنا وتصالحا ، ثم اختلفا
مرة اخرى لمناسبة طلوع الشمس ، وتبادلا الشتائم ، وتصالحا
وتصافيا ، واخيرا تشاجرا لمناسبة تكاثف الضباب ، فحاول الاخ
البكر ان يطعن شقيقه بمدية ، فهرب ، وقفل عائدا الى بلاده ،
ومعه الخرائط التي رسم عليها مكان الكنز ، بعد ان عقد النية
على قطع الروابط التي تربطه باخيه ..

وعقد الاخ البكر النية على متابعة سيره الى مزرعة « القرنفل »
التي كانت تبعد الف كيلو متر عن فيراكروز للبحث عن الكنز .
مكتفيا بالمعلومات التي وردت في الوثيقة التي كانت لديه ، وبما
علق في حافظته مما شاهده في الوثيقة التي بقيت في عهدة
اخيه ، وبما كان يأمل ان يحصل عليه من ارشاد لدى فلاح
المنطقة ، خاصة الطاعنين بالسن منهم .

* * *

كانت السيدة (جوترودا) ، صاحبة مزرعة « القرنفل »
تطرز مفرشا لاحد الاديرة في غرفتها ، حينما دخل عليها ابن
حارس سجن (بورغوس) ، واطلعها على الوثيقة التي آلت اليه
من والده ، وهي دفتر مكتوب بخط خشن شبيه بخطوط الاطفال ،
جاء في اولى صفحاته : « انا بدرودي استرغا في سجن بورغوس
عام ١٧٨٧ » ••

ارتعشت السيدة (جرترودا) لما قرأت اسم (استرغا) ،
اشهر لصوص القارة الاميركية في القرن الثامن عشر ، الذي عاش
في زمن كان الامن فيه مفقودا ، نظرا لقلة الوسائل التي كان
يتصرف بها رجال الامن ، وصعوبة المواصلات ، في قطر
كالملكسيك ، بنيت مدنه فوق الجبال ، او على سفوحها ونظرا
لانعدام الطرق ، وكانت مساحة الملكسيك تفوق الثلاثة ملايين من
الكيلومترات المربعة ، وكان السفر في غالب الاحيان على الخيل ،
والمسافر الذي يريد ان ينتقل من بلدة الى بلدة تبعد عنها ثلاثين
كيلو مترا ، يضطر ان يقضي ثلاثة ايام او اكثر على الطريق ،
لينزل من الجبل الذي تقوم عليه مدينته ، ثم يجتاز واديا عميقا
ثم يصعد الى الجبل الذي تقوم عليه المدينة التي يقصدها ، مارا
بعقبات ضيقة ، وشعاب شائكة ، واراضي تكثر فيها الوحوش •

(بدرودي استرغا) اللص الذي ترك في ولاية سان لويس
بوتوسي اعرق الذكريات ، وتغنت بجرأته الملاحم الشعبية ،
وقامت على بطولته الاساطير ، واوحى للموسيقين الحانا ،

وللادباء شعرا ، وللروائيين خيالا .. كانت المذكرات التي كتبها
بيده ، امام السيدة (جرتودا) •

وصف هذا الشقي بانه اغرب خلق الله .. لقد اعتاد منذ
صغر سنه ان يهزأ بكل شيء ، وكان سروره الاكبر في اقتحام
المهالك ، وتحدي المعاطب والمخاوف ، ومنذ نعومة اظفاره ، احتقر
والده ، وكان هذا الوالد رجلا تقيا زاهدا ، يعمل في احد مناجم
زاكاتيكا ، وسخر من بكاء والدته ، وقال عنه انه تهريج رخيص ،
وبدأ يسرق سرقات طفيفة في مدينته لا حبا بالمال ، انما احتقارا
لاهل الحل والربط • وعندما شب وترعرع ، جمع عصابة مخيفة
تقطع الطرق على المسافرين ، ليحط من قدر قوى الامن وسلطات
المستعمرة العليا .. وعجزت الحكومة عن مطاردته ، وقد وصلت
رباطة الجأش بهذا المغوار المغامر الى نهب دوائرها ، ويسطو على
بيوت كبار موظفيها ، واحراق قصر رئيس الشرطة ، وكل من
كان يتعهد القبض عليه ، وتسليمه للدولة ، جيا او ميتا ، لقاء
المكافأة التي خصصت لهذا الغرض ، كان يقتل خلال ثلاثة ايام ..
ونظم شؤون عصابته تنظيما يفوق بدقته ، وحسن اداء المهمة ،
ومباشرة المسؤوليات ، تنظيم الدولة في ذلك الزمن ، وفرض
هيئته على رجاله ، وروضهم على ركوب الاهوال ، دون التذرع
بالجدال ، لتأخير الاعمال ، وقسا عليهم ، وجار ، فازدادوا محبة
له ، وطاعة ، وخضوعا •

ذاع صيت استرغا ، وعمت شهرته ولايات عديدة ، واختار

منطقة (سان لويس بوتوسي) مركزا لشقاوته ، نظرا لكثرة الطرق فيها ، وكثافة الرحلات التي كانت تتم على هذه الطرق ، والترف الذي كانت تنعم فيه المدن المحيطة بها ، ووجود اغنى مناجم الذهب والفضة والاحجار الكريمة في تلك البقاع .

كان ينزل من المقر الخفي الذي اتخذه له في غار حفرت فوق ذروة باذخة ، تحفها الغيوم ، وتحميها النسور ، وتسوره الصخور فيجتاز الخوانق والمثاقب ، وينقض على المسافرين او على القوافل التي تحمل البضائع الغالية ، فيستولي عليها وعلى ما كانت تنتجها المناجم المجاورة من سبائك وقضبان من الذهب العقيان ، والفضة كما كان يستولي على الحلي والمجوهرات ، والدنانير ، والغلات ، وادوات الزينة ، والعطور ، وعلى كل شيء كان يعجبه مما تحمله القافلة من متاع او زاد ، وكان الرعب يستولي على قلوب المسافرين لما تناهى اليهم من اخبار بأسه وصيته وقسوته وجبروته فينقادون لاهوائه ، ويستسلمون لارادته وينفذون ، صاغرين ، ما يصدر عنه من رغبات وأوامر ، واخيرا كان يقتل او يعذب من يشاء ، ويفر هاربا الى مقره ، حيث يودع الغنائم امكنة لايمكن ان تطأها رجل انسان سواه ، وسوى رجال عصابته الامناء ، ويأخذ في مقره قسطا من الراحة والاستجمام ، ثم يعود الى ما ألف من سلب ونهب . .

ضجّ رجال الامن منه ، وسئموا ملاحقة هذه العصابة ، وكان (استرغا) يشن الغارة تلو الغارة عليهم فيفتك بهم فتكا ذريعا ،

وكان رجاله يسدون عليهم الطرق، ويقطعون الممرات ، ويباغتهم
بالهجمات الصاعقة ، فتتضعض اركانهم وتجف افئدتهم ، فيولون
مدبرين ويردون بالخيبة والاختفاق، تاركين جث موتاهم وجرحاهم
على الحضيض ***

هكذا كانت احوال هذا الرجل عندما حدث مالم يكن منتظرا
حدوثه :

حدث ان دخل الحب في قلب الشقي ، وكان حبا من نوع
خاص ، عجيبا ، فريدا ، صادف ان السيدة النبيلة (ماريا اوخينيا)
كانت عائدة الى (غوانا خواتو) ، بعد ان زارت والدها بمدينة
(اغواسكاليتسي) ، في عجلتها المطلية بالابريز ، وكان يرافقها
زوجها . فاستوقفها الشقي ، واستولى على جواهرها من لؤلؤ
عماني ، وياقوت بهرماني ، وزبرجد كولومباني ، وبيجادي يشع
في ظلام الليل ... ولما شاهد وجهها ، احمر وجهه ، واقشعر بدنه
وتوقف الدم في عروقه ، وجمد نظره .. لقد طرب دهشة ، وتاه
هياما ، تلمظى غراما ، وصعق وجدا .. ظن انه اوشك ان يقع
على الارض فاقد الرشد ولكن ما فتىء ان صحا ووعى ، فاخرج
زوج السيدة من العربة ، وارداه قتيلا ، وحمل (ماريا اوخينيا)
واخذها الى مخبأه في الجبل ... وهناك خرا امامها راكعا ،
ساجدا ، وقبل يديها ورجليها ، وانتظر كلمة منها ، فلزمت الصمت
وكانت قاعدة على مقعد من المخمل سرقة اللص في احدى
جولاته .. وظل الليل كله يتأملها دون ان يجراً على مسها ، او

الاقتراب منها ، وظلت هي كالصخرة ، بكماء صماء ، وفي الصباح ذهب الى شغله المعتاد ، ورجع مساء بما سلب وما اغتصب ونهب ورمى بذلك امامها ، واخذ يبكي ويتنهد مدة من الزمن ، ثم قصد مقره ، ونام ، وعاد في اليوم التالي الى مباشرة الشقاوة ، والقتل ، والعدوان .. وبني لماريا اوخينيا دارا بين الصخور تولى تأييدها بأفخر الرياش ، وكان حينما يغادر مقره يضع على باب هذه الدار رجلين مسلحين ، ليحرساها ، ويمنعها من الخروج ، او الاتصال بأي كان ، وعندما كان يؤوب الى سكنه كان يدخل حجرتها ، ويقعد قرب قدميها ، ويتأملها بحنان ، واعجاب وتقديس ساعة ، ثم ساعة اخرى ، حتى يأخذ منه التعب مأخذه ، فيخرج من هذا المكان .

وكل ما كان يبقى عادة في قلب الكهل ، منطويا في اعماق شخصيته ، من سذاجة الطفولة ، وطهرها وصفائها ، وتقائها كان يظهر على وجه المجرم ، وفي تصرفاته ، اثناء تلك الفترة .. وقد زاده جبه عزما ومضاء ، وبلغ به ارفع رتب الشجاعة ، واقصى درجات الاجرام ، فتفاقم حصيد عمله ، وتضاعف رصيد بطشه ، وتكاثرت لديه الكنوز ، واصبحت الكهوف تعج وتزخر بها .. اضحى (استرغا) لص الجيل ..

واستمرت (ماريا اوخينيا) في سكوتها المطلق ، وبدت كأنها في حلم دائم ، تتمالك شعورها ، وتمنع الدمع من السيل ، والقلب من التشكي ، والروح من اليأس ، والمؤمن لا يعرف لليأس معنى ،

واخيرا تكلمت ذات يوم ، وطلبت الى الشقي ان يوفر لها الاسباب اللازمة للقيام بواجباتها الاخيرة تجاه الله ، ففعل ، وطلبت اليه بعد ذلك ان يعدها وعدا قاطعا بان يسلم جثتها الى اهلها حين يقضي نجبتها ، فوعد .. وماتت بعد يومين ، وبرّ اللص بوعده ..

مضت ايام ، وعمت الكآبة روح (استرغا) وساد فكره ، القنوط ولم يعد يجد لحياته طعما ، ولا لعمله غبطة .. وفكر في الرحيل الى بلد بعيد ، وبدا له ان واجب الشهامة يقضي عليه بالا يتخلى عن رجاله المخلصين الذين دربهم على القتال ، وعلمهم ضروب الوغى ، والذين كانوا يحبونه حبا جما ، ويضحون بكل غال وعزيز في سبيل خدمته ، ورفع راية عصابته عالية في السماء ، ترفرف على القمم ، وتشحذ الهمم ..

وكان (استرغا) يطوف حول الدار التي سكنتها (ماري اوخينيا) ، ويحاول ان يخلد في مخيلته صورتها ، ويبقى برهات طويلة شاخص الطرف امام المقعد الذي كانت تقعد عليه ، محاولا بعث روحها او استنشاق اريجها ، وبات قليل الكلام ، واجما ، حزين الصدر ، وقرر نهائيا ان يعتزل العمل ، وفي هذا السبيل عقد النية على التخلص من رجاله ، وقتلهم اجمعين .

استهل هذا المشروع بشنق اربعة منهم بتهمة سخيفة ، ثم نصب كميناً لشردمة من رفاقه كان من تيجتها ان لاقوا حتفهم ، وارسل آخرين بمهمة شاقة ، واخطر رجال الامن بوجودهم في مكان معين ، فداهموهم بغتة ، واعتقلوهم ، ثم اعدموهم . هكذا

هلك رفاقه جماعات ، وافرادا ، حتى بقي من كان مكلفا بحراسة مقر اللصوص ليلا على ظهر الطود ، فطلب اليه ان يأخذ حاجته من النوم ، في احدى الليالي ، ولما تأكد من رقادهم ، قذف به من اعلى الجبل حتى الوادي ، فتهشم جسمه ، ولفظ روحه في بحيرة من الدماء ..

اصبح (استرغا) وحيدا ، يقضي النهار تائها بين الجبال والكهوف ، واراد ان يضع كنوزه في مأوى ، فصادر عاملي بناء ماهرين ، وقادهما الى مخبأه ، ثم حمل ما كان لديه من الدواب والخيول ثروته الطائلة ونزل الى المكان الذي تقوم عليه حاليا مزرعتنا « القرنفل » ، وهناك امر العاملين بان يحفروا حفرة مربعة ، عميقة جدا ، في الارض تشبه الآبار العريضة ، وان يبنيا في داخلها ، من كل جهة ، حائطا من الحجر ، ثم انزل الكنز في الحفرة ووضع على احسن ترتيب ، وردم الحفرة ، ودفن الكنز ، واعاد الارض الى ماكانت عليه سابقا ، وقال للعاملين انه يريد ان يدفع لهما اجرتهما ، فاعطى كل واحدا منهما قضييين من الفضة ، وقادهما ليلا حتى الطريق العامة ، وقتلها رميا بالرصاص ، وتركهما على مقربة من الطريق وبجانبيهما قضب الفضة ، وعاد الى مقره ٥٠٠ وبعد ايام قليلة تنكر ، واتخذ اسما مستعارا ، واجتاز حدود المكسيك ، واستطاع ان يصل الى اسبانيا ، ويستقر في مدينة (بورغس) ، حيث كشف امره ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ، ومات في سجنه ، وقد اراد ان يهدي كنوزه الى ملك

الاسبان وانتقلت الوثائق التي دونها في هذا السبيل الى والدي
حارس السجن ، كما رويانا •



آمنت السيدة (جرتroda) صاحبة المزرعة كل الايمان بما
ورد في مذكرات اللص العظيم ، و ارادت ان تتعاون مع ابن
حارس سجن (بورغوس) في البحث عن الكنز ، فواقفت في
(الاسيندا) اعمال الزراعة ، واستنفرت العمال والفلاحين للقيام
بالحفر والتنقيب ••• فحفروا كثيرا ••• وبحثوا في شتى الجهات
والانحاء ، وقلعوا الاشجار ، وقضوا على الازهار ، وهدموا
حقول الدرة ، واتفوا اراضي مزروعة قطنا ، ولكنهم لم يجدوا
الكنز •• ولم يعد احد يعلم اين هو صاحب الخرائط ، الاخ
الاصفر ، الذي اختلف مع اخيه البكر وذهب ••• لقد بذلت
(جوترودا) مبالغ طائلة ، انفقتها في سبر اراضيها وتحملت
خسائر هائلة ، جرها عليها تعطيل مشروعات ، وتخریب الزرع ••
ولم تعثر (جرتroda) على اثر للكنز ، وأهزلها المرض ، وهرمت
وانتقلت الى الآخرة ، حاملة معها املها بالاستيلاء على اموال
اللس (بدرودي استرغا) ••

واضاف صديقي (فرانسيسكو) قائلا :

— ونحن ورثتها، لم نزل نذكر هذه الثروة المدفونة في ارضنا.
نحن نشعر باننا نمشي فوق اديم انطوى على كنز من اعظم كنوز

التاريخ ، لم نستطع حتى الآن استخراجها ، لان الخرائط قد فقدت الى الابد ... وقد يقضي المنطق علينا بان نزيل من فكرنا وجود الكنز في « القرنفل » ونعتبر حكايته حديث خرافة او اسطورة من الاساطير التي تتناقلها الاجيال ... ولكن صورة هذا المال العزيز جميلة ، وعزيزة علينا ، اذ تبعث على الدوام في قلوبنا ، وفي قلوب ابنائنا ، امانى عذبة ، سنبحث عنه ، وسنظل ننقب عنه الى الابد ... وان الامل في العثور على هذا الكنز لهو في ذاته كنز لا يمكن ان تبده الليالي ، ولا ان تنزعه منا صروف الدهر . تحتنا كنز ، سنفتش عنه ونحن وبنائنا على مر الاجيال ..



للمشروعات التي يقوم بها قادة الشعوب والامم الذين كتب عليهم ان يصنعوا التاريخ ، آثار واصداء تفوق بكثير ما كانوا هم يتوقعونه ، يوم تصميمهم لتلك المشروعات او مباشرتها ، فالعبريات تعمل للدينا جمعاء ، وللدهر كله ، حتى ولو استهدفت في عملها بلدا معينا ، او قصدت فترة محدودة من الزمن .. ومثال على ذلك ، عندما حطم نابليون الممالك الوراثية في اوروبا ، واقام على انقاضها حكما مطلقا ، لم يكن يقدر لاول وهلة بانه يمهّد السبيل لتطور حاسم في مفهوم الدولة في الغرب ، اذ بدأ هذا المفهوم يتحول من قاعدة حكومات الملوك الى قاعدة حكومات الشعوب ..

و شاء القدر ان يكون نابليون نفسه هو السبب المباشر لاندلاع نيران الثورة في اقطار اميركا اللاتينية . كانت تلك الاقطار تابعة للتاج البوربوني الاسباني ، ومنقسمة الى اربع نيابات ملك (اسبانيا الجديدة ، وغرناطة الجديدة ، والبيرو ، ولا بلاتا) وخمس رئاسات عامة (كوبا ، وفنزويلا ، وغواتيمالا ، والتشيلي ، والاكوادور) ... وعندما احتل نابليون اسبانيا عام ١٨٠٨ اثر معارك دامية ، ونصب اخاه جوزيف ملكا على الاسبان ، بعد ان طرد فرديناند السابع ، لم تقبل اقطار اميركا سلطنة هذا المعتصب ... هكذا تضععت شيئا فشيئا الروابط التي كانت

تربطها بالعرش الاسباني ، وقامت في كل قطر اميركي ، لجان محلية كانت تتظاهر علنا بالولاء لفرديناند السابع ضد بونابرت ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تسعى سرا لفصل بلدها عن مدريد ، ومن تلك اللجان التي كان رجالها قد تأثروا وتأثرا عميقا بالافكار التي اذاعتها الثورة الفرنسية ، وبالمبادئ التي اعلنتها دستور الولايات المتحدة ، انبثقت قوى النضال الشعبي ، ونمت هذه القوى ، وتطورت ، واصبحت حركات قومية واسعة ، تزعمها قواد اشداء في اميركا الجنوبية كالمحررين ميراندا ، وبوليفار ، وسان مرتن ، وسوكر ، وارتيفاس ، واوهيفنس ، كما تزعمها في المكسيك القائدان الشعبيان هيدالغو ، ابو الوطن المكسيكي ، وموريلوس ، رجل دولتها وعلمها الاول .

وامتازت حركة التحرير بالمكسيك بكونها اتخذت طابعا اجتماعيا واقتصاديا صريحا ، بجانب طابعها السياسي ، منذ نشوبها وقد دعا هيدالغو الى الغاء الرق ، والسخرة ، والتمييز العنصري ، وتحطيم الطبقات ، وفرض مبدأ المساواة بين المواطنين ودعا (موريلوس) الى استقلال المكسيك الاقتصادي وانهاء عهد الامتيازات ، وتقسيم الملكيات الكبرى ، وتوزيعها على الفلاحين ، ومصادرة اموال الانتهازين ، وانفاقها في سبيل رفع مستوى الشعب ويسير حكام المكسيك حتى يومنا هذا على ضوء المبادئ التي اقرها هيدالغو وموريلوس

لقد كان اخراج القارة الاميركية من نطاق النفوذ الاوربي

حدثا تاريخيا من اعظم الاحداث ، اذ شطر العالم الغربي الى شطرين ، تضاربت مصالحهما على مر السنين، واختلفت اهدافهما . ومن نتائج هذا الحدث ان اتجه التوسع الاوربي نحو قارة افريقيا البكر ، وتوزعت اقاليمها الدول الاوربية خلال القرن التاسع عشر . ففي ٦ كانون الاول ١٨٢٤ ، حطم المحرر الفنزويلي (سوكر) آخر جيش اسباني في معركة (اياكوشو) الشهيرة التي قيل عنها انها كانت (واترلو) الحكم الاوربي في اميركا اللاتينية ، ولم تمض ست سنوات على هذه الهزيمة حتى كان الفرنسيون يحتلون الجزائر .

ان تاريخ حركات التحرير في اميركا اللاتينية معروف ، وهو زاخر بالبطولات ، والتضحيات والمكاسب . والقصة التي سجلناها تحت عنوان « باب الحرية الحمراء » انما هي بالحقيقة صفحة تاريخية ماثورة من صفحات النضال المكسيكي المشرق يرددها المكسيكيون بكثير من الفخر ، وهي تروي كيف اشعل الثوار النار في خان كان مستودعا للحبوب في مدينة (غوانا خواتو) ، وكان المكسيكيون يسمونه (الهنديغار غراناديناس) واصبح احتلال القوى الوطنية لهذا الخان رمزا لتحطيم الاغلال وتحرير الشعوب ، بنظر ابناء المكسيك ، وقد قال استاذ الحقوق الدولية الفاضل السيد (فيسنته ساينز) في كتابه (صرخة دولوريس) بان سقوط (الهنديغار غراناديناس) الذي كان حصنا للرجعية ، بيد المناضلين المكسيكيين يشبه سقوط الباستيل بيد الثوار الفرنسيين .

باب الحرفية الحمراء

- المخدة •
- فلان •
- الخرقه •
- الدليل •
- الزيتون •
- زرقاء •
- البناء •

لم تكن هذه قصيدة سوربالية ، بل انها كلمات كان يرددها
اصدقاء لنا من المكسيكيين ، ضمتنا اليهم دعوة كريم ، يتسابقون
في ذكر الفاظ اسبانية اصلها عربي . . . لغتي ، لغتي العربية ،
يا لغة ابي ، وامي ، واجدادنا اجمعين ، يا اجمل ما في صدري من
كنز ، يا اسمى ما لدى الانسان من وسائل التعبير ، ان في بحرك
الطامي متسعا لجميع العبقريات ، وجميع العلوم ، والحضارات . .

وجاء البحث في كلمة « الهنديغا » الاسبانية ، فمنهم من
ادعى انها مشتقة من اليونانية ، ومنهم من ادعى انها مشتقة من
العربية . . وعندما سئلنا ، اجبنا انها ، حسب ما نعتقد ، من اصل

عربي ، وانها جاءت من « الفندق » وقد « صدرنا » هذه الكلمة لمدينة البندقية ، واخذنا من البندقية لقاءها كلمة « لوكنة » ، كما صدرناها للانجلس ، والمقصود بالفندق ، الخان ، بواسع مفهومه ، أي مستودع تجاري يمكن ان توضع فيه المؤن ، كما يمكن ان يلجأ اليه المسافرون

هذا الحديث عن « الهنديغا » كان في شهر ايلول ، وهو الشهر الذي تحتفل به المكسيك بثورتها التحررية التي نشبت عام ١٨١٠ ، ودامت حتى ١٨٢١ ، حيث استقلت هذه البلاد نهائيا عن اسبانيا ، واصبح مصيرها بيد ابنائها . وحدثنا احد الحاضرين فقال :

في صباح السادس عشر من ايلول عام ١٨١٠ أستيقظ الاب ميكيل هيدالغو اي كوستيا ، خوري مدينة دولوريس ، عند الفجر ، وبدأ يرق الجراس كأنه يريد ان يدعو ابناء المدينة الى اداء فريضة الصلاة . . . كانت الجراس تفرع بشدة وحماس واخذ الشعب يهرع الى الكنيسة مصرا على الوصول اليها في الوقت المناسب ، لكي لا يفوته شيء من سر القداس ، ولا من العظمة البليغة التي اعتاد الاب هيدالغو أن يلقيها على ابناء رعيته بعد تلاوة الانجيل كانت الجراس تدوي في مدينة (دولوريس) دون انقطاع ، تقذف في الفضاء النداء تلو النداء ، اموجا من الاصوات ، والانغام الفضية ، كانت تصدح تارة ، وتارة تزمجر ، وتصخب ، وتضج ، وتعج .

كانت دولوريس ، وتسمى اليوم هيدالغو تخليداً لذكرى قائد الثورة الاولى ، بلدة صغيرة ، تقع في المنطقة الوسطى من الاقليم ، في مربع يطلق عليه لقب « قلب المكسيك » ، ويضم هذا المربع مدناً اشتهرت بجمال طبيعتها ، وبمحافظةها على طابعها الاسباني القديم ، وبآثارها الخلابه ، هي كيريتارو ، وسيليا ، وسان ميكيل ، وسان لويس بوتوسي ، وغوانا خواتو ، التي اصبحت ، منذ ذلك التاريخ ، مهد الثورة الاستقلالية ، وقاعدة انطلاقها الاولى

وكان هيدالغو قد بلغ في ذلك الزمن السابعة والخمسين من عمره ، وقد تأدب وتفقه في مدينة (بلد وليد) ، وتسمى اليوم موريليا تخليداً لذكرى موريلوس قائد الثورة الثاني ، على يد علماء افاضل ، وتعمق في اللاهوت ، وتعلم الفرنسية ، ودرس مذاهب فلاسفتها ، وفلاسفة الانكليز المتحررين ، كما حذق اللاتينية ، والم بعدد من لغات المكسيك القديمة ، ثم اصبح مديراً للمعهد العلمي الذي اتم فيه تحصيله ، واسمه معهد (سان نقولا) ، ثم كاهناً لرعية دولوريس ، حيث استطاع ان يكسب محبة الشعب كافة ، لعطفه على الهنود والعييد ، واخلاصه للعمال ، وتأييده للفلاحين ، وشده ازر الفقراء والضعفاء وزهده في متاع الدنيا وكان قد سبق له ان تجرأ ، وخالف اوامر السلطات العليا التي كانت تمنع تعليم الهنود ، وتدريبهم على العمل المثمر ، فارشد اولئك الهنود الى طرق زراعة الزيتون ، والتوت ، والكرمة ، ولقنهم اساليب الصناعات اليدوية وخاصة

صناعة الاواني والقوارير الخزفية ، والمحافظ الجلدية ، ولما علمت السلطات بذلك ، ارسلت جنودها الى دولوريس ، فقاموا باتلاف المزروعات ، وقطع الاشجار التي زرعها الهنود ، ومصادرة ما اخرجته ايديهم الماهرة من مصنوعات انيقة ترتاح اليها الانظار . واصبح هيدالغو شخصا مشتتبا به ، تراقبه السلطات وتقاومه . .

اجابت نداء الاجراس جماهير غفيرة ، واقبل الشعب بقضه وقضيضه ، وحشده وحفله ، وتجمع الاهلون في صحن الكنيسة الرحب ، وساحتها الفسيحة ، وسكنت الاجراس ، وارتفع صوت هيدالغو قائلا :

« ايها الاخوان ، اني لم ادعكم الى الصلاة ، انما دعوتكم هذه المرة الى الجهاد . . لقد آن الوقت لتحرير بلادنا من النفوذ الاجنبي ، وفي هذه الساعة سنخوض الحرب ، ذودوا عن حقوقنا المقدسة ، فلتحي المكسيك حرة ! وليحي الاستقلال ! وليسقط الطغاة ! ولتحي اميركا ، ويسقط المستعمرون ! . .

تلك هي « صرخة دولوريس » التي خلدها المكسيكيون في تاريخهم القومي ، والتي يرددنها حتى يومنا هذا رئيس الجمهورية كل عام ، في السادس عشر من ايلول ، بينما تنطلق اجراس مدينة هيدالغو ، رنات داوية ، ونقرات شجية ، لتحي ذكرى يوم اغر من ايام هذا الشعب المجيدة .



بذلت اسبانيا جهدها لكي تحيط دول اميركا الخاضعة لحكمها
باسوار من الرقابة ، وتمنعها من الاتصال بالعالم الخارجي ،
وتعزلها عن سائر الاقطار ، وكان سفر رعايا تلك الدول الى البلاد
الاجنبية ممنوعا بصورة عامة ، كما كان دخول الاجانب اليها
ممنوعا ايضا الا في حالات استثنائية ، وقد حظر على الاكثرية
الساحقة ، من هنود ، وعبيد ، وعمال ، تعلم المهن الحرة ،
واللغات الاجنبية ، وسدت امام الشعب سبل الثقافة الحرة ،
وحجبت عنه وسائل الاطلاع على ما يجري حوله ، وفرض تفتيش
شديد الوطأة على الكتب والرسائل ، والمجلات ، والصحف التي
كانت تأتي من الخارج ، وكانت « الدوواوين » التي انشأتها
الدولة لتنفيذ سياسة القمع ، والكبت ، والضغط على المشاعر ،
تعمل ليلا ونهارا دون هوادة ودون رحمة ..

ورغم كل ذلك ، فان مبادئ التحرر التي انتظمت العالم
في القسم الثاني من القرن الثامن عشر والتي اعلنها الكتاب ،
والفلاسفة ، والمفكرون قد اكتسحت ايضا دينا الاسبان في
اوروبا واميركا ، فالفكرة روح ، والروح لا يمكن ان تحول دون
سيرها وجريها الجدران ، والحدود ، والاسوار ..

وفي مدينة (كيريتارو) ، القريبة من (دولوريس) ، كانت
جماعة من المثقفين الاحرار قد تألفت لبث الاراء النيرة ، رعاها
سرا الكوريبيدور (دومنغيز) (١) وزوجته (الكوريبيدورا) ،

(١) الكويبيدور هو حاكم المنطقة .

وضمت بين اعضائها اللامعين واحدا من ملاك الزراعيين كان شغوبا بصراع الثيران اسمه (انياسيو اينده) ، وكانت غاية هذه الجماعة في بادئ امرها تحرير شعب المكسيك من سلطة (الغاشويين) (١) وتعديل نظام الحكم بالمكسيك على اساس اللامركزية والمساواة مع اسبانيا ، ونشر العلم ، واقامة العدل . . وقد انضم الى الجماعة بعض الضباط ، كما انضم الاب (هيدالغو) ونجحت في دعائها الى حد ادى الى ارغام (الغاشويين) على مغادرة (كيريتارو) ، واتفق هيدالغو وآينده على عقد مؤتمر شعبي ضخم في شهر كانون الاول المقبل ، يعلن خلاله استقلال المكسيك . . وبلغ الخبر السلطات الاسبانية بطريق الوشاية والخيانة ، فقررت اعتقال (هيدالغو) و (آينده) ولكن الكورييجيدورا ، السيدة خوسيفا اورتيس ، اعلمت هيدالغو بذلك .

وكان (آينده) مطلعا ايضا على نوايا السلطات ، بشأنه ، فقصد مدينة (دولوريس) للتشاور مع هيدالغو . . وقرر هيدالغو ان يقطع الدرب على رجال الحكومة ، فاعلن الثورة بالشكل الذي وصفناه ، وايده الاهلون في بلده ، والتحققت به جماعة الاحرار في كيريتارو ، والهيب الحماس صدور المناضلين ، وساروا مسلحين

(١) ويقصد بذلك الموظفون والرعايا الاسبان المقيمون بالمكسيك.

بالعصي ، والمقاليع ، والفؤوس ، والسكاكين والماشيتي (١) ،
تحت راية عذراء غوادلوثي (٢) وراء هيدالغو لتحرير المكسيك
والقضاء على الظلم ، والتفريق العنصري ، والفساد ...

وسميَّ (هيدالغو) قائدا عاما لاميركا .. واحتل الثوار
فورا مدينة (دولوريس) ، والقوا القبض على الاسبان فيها ،
وخرجوا منها الى (سان ميكيل) ، فاحتلوها والتحت بهم هنالك
العصابات التي جمعها آينده (وتسمى المدينة اليوم سان ميكيل
اينده ، تخليدا لذكرى هذا المجاهد الشهير) ، ثم ساروا نحو
مدينة (سيلايا) ففتحوها ، ومشى المجاهدون على (غوانا خواتو)
وكان قد بلغ عددهم الخمسين الف اذ انضم اليهم الرعاة ،
والفلاحون ، والعمال ، والمثقفون ..

كانت (غوانا خواتو) قاعدة خطيرة من قواعد الاستعمار (٣)

(١) نوع من الصلت ، اي السكين الكبيرة ، وكانت سلاح
الهندي المعتاد .

(٢) ظهرت السيدة مريم عام ١٥٢١ على هندي اسمه خوان
ديغو ، فرجاها ان تعطيه برهانا يمكن ان يقدمه للاسقف ، فطلبت
اليه ان يقطع بعض الزهور وان يضعها في وشاحه ، ليسلمها الى
الاسقف ، وحين جاء الى الاسقف القى امامه الزهور ، فبدت صورة
السيدة مريم مطبوعة على الوشاح ، وشيدت كنيسة كبرى بضواحي
مكسيكو لحفظ هذه الصورة ، واصبحت الكنيسة اهم مركز روحي
في اميركا اللاتينية ، يقصده الحجاج من كل حذب وصوب .

(٣) يرجع الى اسطورة : عجلة النار .

اذ غدت في ذلك الزمن اعظم مركز لانتاج الفضة في القارة الاميركية، تستغل في ضواحيها المناجم الثرية ، وتقيم في ربوعها الطبقات الغنية ، والاسر الاسبانية المتنفذة، وقد ادرك هيدالغو ان احتلالها سيكون له اثر عميق في البلاد ، فقرر الهجوم للاستيلاء عليها .

تولى الدفاع عن المدينة مندوب الحكومة (ريانيو) ، وكان قبل سنوات قليلة ، قد شيد فيها مستودعا جبارا للقمح على نسق قلعة اندلسية شامخة الذرى ، صعبة المنال منيعة . . تحيط بها اسوار ضخمة من الحجر الاخضر الصوان . وقد سمي (الهنديغا غراناديتاس) . . ورأى المندوب (ريانيو) ، عندما وصل الثوار الى حدود المدينة ، ان يدافع عنها من هذا الصرح الحريز حيث اعتصمت جيوشه ، وكانت مزودة بالاسلحة النارية ، والمدافع ، وقاذفات الهاون ، وبكميات كبيرة من الذخائر والمؤن، واحتشد ايضا المقيمون الاسبان في (الهنديغا) ، وقصدوا ملاجئها ، ليكونوا ، في مأمن من غارات الثوار . . .

تمتد (غوانا خواتو) وسط وادي خصيب ، وقد جاءها هيدالغو من اعلى الجبل ، وكان في وسعه ان يدخلها بسهولة لو توفرت لديه البنادق والقنابل ، ولكن نقص هذه الانواع من الاسلحة ، الجأ الى ان يجابه حصن (الهنديغا) ، وان يحتله او ان يهدمه ، ليتسكن من السيطرة على المدينة والاستيلاء عليها .

تقدم الثوار الى الحصن ، وطوقوه ، حتى اضحوا على مرمى من بنادق الاعداء ، فحفروا خنادق ونزلوا فيها . . وكان لا بد

لهم ان يدخلوا الحصن من بابه الكبير ، وكان الباب ثقيل
الوزن ، محكم الاغلاق ، مصنوعا من السنديان ، محاطا باطار من
الحديد ، ومثل هذا الباب لا يمكن تحطيمه الا بالمدافع ، ولم تكن
لدى الثوار مدافع ... حاول بعض الثوار ان يدكوه بواسطة
جذع دوحه ، فاردتهم نيران الاعداء قتلى ، قبل ان يصلوا اليه ،
واراد آخرون ان يقتربوا منه صفوفا متراسة لعلهم أن يوفقوا
في قلع الاقفال ، فحصدتهم الرصاص حصدا ... ورأى هيدالغو
ان يهدم الباب باشعال النار فيه ، وحرقه ، وتبرع فدائيون ،
فجمعوا بجانبه يابس الحطب ، والاشباب ، والتبن ، وقطعا
مكسرة من اثاث البيوت ، والعربات ، والمقاعد ، والمناضد ،
هكذا تكونت امام الباب اكوام من الخشب ، اصبح من الضروري
ان يوقد النار فيها ... فتسابق الابطال للقيام بهذا العمل ،
فكانوا يقتلون ، الواحد تلو الآخر ، قبل ان يبلغوا الهدف ..

وصاح هيدالغو يائسا : « هذا باب الحرية الحمراء ، اليس
في صفوفنا من يقدر على فتحه » ؟

خرج شاب قوي البنية ، عريض المنكبين ، واجاب :

— انا !

كان اصداقؤه يلقبونه « بالطاووس » ويقدرّون استعدابه
المنية ، وقوة ارادته ، وسرعة خاطره ...

طلب الطاووس الى ثلاثة من رفاقه ان يساعده على وضع

حجر صلد على اكتافه يغطي ظهره ، وانبطح على بطنه ، واخذ
يزحف على الارض قابضا بيده شعلة من النار ، وكان الحجر
يحميه كالدرع ، فينفجر عليه رصاص العدو ، قبل ان ينفذ الى
جسمه ...

زحف الطاووس باطراد نحو باب الحصن ، حاملا حملة
الثقيل .. حتى اصبح على بضعة امتار من هدفه ، وفجأة صاح
صيحة الم ، وتوقف .. لقد اصابته رصاصة في فخذه ، الذي
لم تكن تغطيه الدرع الحجرية ، واخذ دمه يسيل بغزارة ..
تردد قليلا من الوقت ، ثم استمر في زحفه حاملا الشعلة ، تاركا
وراءه خيوطا حمراء من الدماء ... مضت دقائق وكان الطاووس
قد اقترب من اكوام الخشب ، واشعل النار فيها ، فاحتدمت ثم
امتدت الى الباب فاحرقته ، وارتفع منه اللهب ، وتداعى ،
وسقط ، وبقي الطاووس فاقد الحس تحت درعه حتى شوى جلده
اللهب ، فمات شهيدا ... واحتل الثوار « الهنديغا » وفتكوا
بقواد العدو ، واستولوا على المدينة ... وكان هذا النصر اول
نصر مبين يحرزه المحررون بالمكسيك ..

وعند نهاية القصة ، قال احد المستمعين لآخر :

— وماذا حصل بعد ذلك اخي (فيسنتي) ؟

فاجاب :

— حصل ان استمرت الثورة ، وقتل هيدالغو ورفاقه

بالرصاص ، عام ١٨١١ ، واعاد الاعداء بناء « الهنديفا » ، وعلقوا
رأسه ، ورأس (اينده) ، واثنين آخرين من زعماء النضال الشعبي
على واجهة هذا الحصن .

— كان هيدالغو يؤمن بالشعب ، فقام في الشعب زعيم آخر
اقوى منه اسمه (موريلوس) ، وقاد المعارك ضد الاستعمار حتى
اعتقل ، وقتل ايضا رميا بالرصاص عام ١٨١٥ .
— وبعد ؟

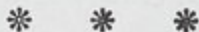
— كان (موريلوس) يؤمن بالشعب ، فقام الشعب اجمع
ضد الطغاة ، وشن عليهم حربا شعواء ، حتى خرجهم من دياره ،
وقضى على ماتركوه من اثر مستنبح ، وظل سيدا في بلاده .
— الى اين تريد ان تصل ؟

— اريد ان اصل الى ناحية دقيقة من نواحي الشخصية
المكسيكية ، وقد حللها السيد تورس بودت احد كبار رجال هذا
القطر بخطاب شهير له والسيد (تورس بودت) هو على المستوى
العالمي شاعر من ارق شعراء هذا القرن العشرين ، والمدير العام
الاسبق لليونسكو الذي صمم مشروع التربية الاساسية ووضعه
موضع التنفيذ في مختلف اقطار العالم ، وهو في نطاق
بلده وزير للمعارف وصاحب اضخم منهج للقضاء على الامية ،
يذكر (تورس بودت) اسطورة اوروية تروي غرق مدينة بكاملها
في بحر الشمال ، لقد غمرت المياه هذه المدينة بدورها وقصورها ،
وساحاتها ، وحدائقها ، ولكن البحارة يسمعون في بعض الاحيان ،

عندما يجتازون البحر حيث كانت هذه المدينة قائمة فيه ، صوت جرس يدق من احد ابراجها ، فترتاح اليه نفوسهم ، ويتأكدون بانهم سيصلون الى الساحل سالمين ، ثم يضيف (تورس بودت) :

« اما في بلدنا ، فان كل مكسيكي يشعر ان جرس دولوريس يدق في فؤاده .. وما جرس دولوريس الا نداء الثورة ينطلق من اعماق الضمير ، داعيا الى التحرر ، والتجدد .. ان شخصية كل فرد من ابناء المكسيك تنطوي على نائر .. نائر على الظلم » ..

— ما أشبه الشعب المكسيكي بشعب سورية !



وفي عام ١٨٢١ ، استقلت المكسيك ، وكانت مساحة الاراضي التي تملكها لا تقل عن مساحة اراضي الولايات المتحدة ، وبفضل جهادها الذي بذلته لنيل الاستقلال ، خطت هذه الدولة المرحلة الاولى ، وهي اسهل المراحل ، في سبيل تحقيق شخصيتها ، وبقي عليها ان تحافظ على هذا الاستقلال بكامل معانيه ، وكان هذا هو العمل الاكبر الذي لم يزل حتى الآن قائما ، شاقا ، مرهقا ، وقد كلفها تنظيم كيائها الداخلي ، والدفاع عن حريتها ، حروبا اهلية قاسية ، واطغالات دامية ، كان من نتيجتها ان انفصلت عنها دول اميركا الوسطى ، وسنت كل واحدة من هذه الدول ، لتقويم شؤونها ، دستورا خاصا بها ، وسلخت بعد ذلك مقاطعة التكساس عن المكسيك في عام ١٨٣٦ ، تمهيدا لضمها الى الولايات المتحدة الاميركية ، وقد تم ذلك فعليا عام ١٨٤٥ ، وعقبه نزاع مسلح بين المكسيك وبين الولايات المتحدة دام سنتين (١٨٤٦ - ١٨٤٨) ، وانهى بمعاهدة (غوادالوبي) التي خسرت بموجبها المكسيك ، بالاضافة الى التكساس ، مقاطعتي كاليفورنيا ومكسيكو الجديدة ، أي ما يعادل نصف اراضيها ، هذا رغم استبسال قوادها ، وجيوشها ، واطفالها في معارك ضارية مع الاميركيين . . .

وبعد الاسبان والاميركيين ، هاجم الفرنسيون المكسيك في

عام ١٨٦٢ ، واحتلوا اراضيها اثناء حكم نابليون الثالث ، وفرضوا عليها امبراطورا من الاسرة المالكة في اوروبا ، هو الارشيدوك مكسيميليان ، شقيق امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف . ولكن المكسيكيين استأنفوا جهادهم المقدس ، واضطروا الفرنسيين الى الجلاء عن اراضيهم ، والقوا القبض على مكسيميليان ، وقتلوه رميا بالرصاص فوق « هضبة الاجراس » بالقرب من مدينة (كيريتارو) ، في ١٩ حزيران ١٨٦٧

ودخلت المكسيك بعد ذلك مرحلة جديدة من حياتها القومية سميت بمرحلة « الاصلاح » واستمرت حتى نشوب ثورتها الكبرى عام ١٩١٠ . . .

وخلال هذه الحقبة ، كان لشخصية رجلين اثر حاسم في تطور البلاد ، اما الاول فهو الجنرال (سانتا انا) الذي حكم المكسيك عمليا منذ عام ١٨٢٢ حتى ١٨٥٥ ، ويطلق المكسيكيون لقب « الدكتاتور المهرج » وكان يكتفي نفسه باللقاب الضخمة ، وقد بلغ من الشذوذ منه انه امر بان تدفن احدى رجليه التي بترت بمأتم وطني رسمي ، ارغم رجال الدولة واعضاء السلك السياسي على الاشتراك فيه ، وانه كان يقضي اوقاته بالتأمل في صراع الديوك ، وكان يأمر بجلبها الى مكتبه لتتصارع امامه ، وكان مدمنا للخمر ، وللعب القمار ، ويتعاطى جميع المنكرات ، وقد قال عنه احد كبار مؤرخي هذا القطر ، بانه اغرب وجه رجل شغف بالحكم عرفه التاريخ . وكانت نفسه كتلة من المتناقضات

جمعت بين الوداعة الفائقة ، وجنون العظمة ، والديمقراطية ،
والعطرسية ، والاجرام ، والصفح ، والكذب ، والغدر ، والاحتيال
والسخاء ، والتسامح ، والرحمة ... ذلك هو القائد الذي كان
المسؤول الاول عن خسارة مقاطعة التكساس في الحرب مع
الولايات المتحدة ..

اما الرجل الآخر الذي صنع تاريخ المكسيك في تلك المرحلة
فهو (بينيتو خواريس) وكان في صباه راعي غنم ، واصبح
اعظم رئيس للمكسيك في القرن التاسع عشر .. وقد سن قوانين
« الاصلاح » ووضع بذلك أسس الديمقراطية المكسيكية ، وتزعم
حركة مقاومة الفرنسيين واخراجهم من البلاد ، وخلع مكسيميليان
ومحاكمته ، وقتله . كان يعرف بنزاهة نادرة ، وقدرة فائقة على
العمل دون كلل ولا ملل ، وارادة من حديد ... واجه ضغطا
قويا من جميع الاقطار الاوربية ومن المؤسسات الدولية ،
واعضاء السلك السياسي ، ومن جانب النساء ، لكي يصفح عن
مكسيميليان ، ورغم معرفته بطيبة قلب مكسيميليان وسلامة
طويته وسذاجته فقد اصر على اعدامه لينذر الغزاة الذين كانوا
يفكرون في احتلال المكسيك . بان الذي يحاول الاعتداء ، في
المستقبل ، على هذا البلد سيكون مصيره كمصير مكسيميليان ،
وقد ظفر خوارس بتقدير القارة الاميركية كلها .

مأنة عميل

وفي عام ١٨٦١ ، استلم (بينيتو خوارس) مهام رئاسة الجمهورية •

وكانت الحروب الاهلية ، والثورات الداخلية ، وكارثة (التكساس) قد ارهقت بيوت المال ، وزجت بالبلاد في ازمة اقتصادية شديدة الوطأة ، ادت الى عجز مالي ، شل ايدي الدولة ، وحال دون قيامها باسبغ واجباتها ، فاضطر (خوارس) الى اتخاذ تدابير زاجرة لاصلاح ما افسده الدهر والسلف •

وكانت الدول الاوروبية قد سبق لها ، خلال الحروب الاهلية ، ان استغلت ظروف المكسيك وماسيها ، لكي تقدم اليها القروض بشروط من الربا لم تر المكسيك بدا من قبولها ، نظرا لحاجتها الماسة الى المال • وكان ايقاف دفع الديون الاجنبية احد التدابير التي اتخذها (خوارس) للسماح ببلده بالنهوض ، فاستاءت الدول الدائنة لموقف هذا الهندي العنيد ، واتفقت ثلاث منها ، هي فرنسا ، وبريطانيا العظمى ، واسبانيا على تجهيز حملة على المكسيك لتستقضي الغريم ، وتؤدب (خوارس) •

وعندما وصلت جيوش تلك الدول الى (فيراكروز) مرفأ

المكسيك الاكبر ، تبين للبريطانيين والاسبان ان لنابليون الثالث ،
عاهل فرنسا ، نوايا اكثر تعقدا ، ومطامع اعظم اتساعا من تحصيل
دين ، وجباية مال ، فامروا جيوشهم بالجلء عن الاراضي
المكسيكية ، والعودة الى بلادهم . واستمرت الجحافل الفرنسية
ترحف وحدها داخل البلاد ، حتى وصلت الى مدينة (بويلا) ،
التي تبعد ١٢٠ كيلو متر عن العاصمة ، وفي مدينة (بويلا)
احتدمت المعركة بين القوى الوطنية ، التي كان يقودها الجنرال
المكسيكي (ساراكوسا) ، وقوى الاحتلال التي كان يقودها
الجنرال الفرنسي (لورنسز) ، وهزم الفرنسيون شر هزيمة ،
وتضعضت صفوفهم ، وفروا هاربين . كان ذلك في ٥ ايار
١٨٦١ ، ولم يزل هذا اليوم ، حتى الآن ، عيداً وطنياً عند
المكسيكيين .

ولكن هذه الهزيمة لم تثن الفرنسيين عن عزمهم على غزو
البلاد المكسيكية ، ولا عن تحقيق اهدافهم الغامضة الجسام ،
فألقوا في البحر جيوشا جرارة على بواخر كثيرة العدد ، وجهزوها
بامضى الاسلحة ، وأمروها بالاتجاه نحو المكسيك ، فدخلتها
وتغلغت في مدنها واراضيها واحتلتها ، وكان الجنرال
(ساراكوسا) قد توفي بحمي التيفوئيد ، والجيش المكسيكي
قليل العدد والعدد ، فلجأ وعلى رأسه (خوارس) الى الحدود
الاميركية ، والى الجبال ، بينما كان الجيش الفرنسي يستلم زمام
الحكم في العاصمة .

* * *

كان نابليون الثالث يحلم بأن يؤسس في اميركا امبراطورية
لاتينية عظمى تمتد من التكساس الى باناما ، تخضع لنفوذه ،
وتضاهي بقوتها قوة الولايات المتحدة ، وكان بلاطه يحاطا
بلاجئين من رجعيي المكسيك ، الذين كانوا على علم بحلمه
الطموح ، فدغدغوا هذا الحلم ، وغذوه ، وحدثوا نابليون بما
كان يرضيه ويلذ له ان يسمع ، فاستسلم لهم ، واقدم على مغامرة
ادت الى انهيار فرنسا ، فاحتل المكسيك ... واختار امبراطورا
عليها الارشيدوك مكسيميليان ، شقيق فرنسوا جوزيف امبراطور
النمسا ، وسليل الهسبرغ ، وكانت زوجة مكسيميليان ، الاميرة
شارلوت ، ابنة ليوبلد الاول ملك بلجيكا ، وحفيدة فيليب لويس
آخر ملوك فرنسا .. وقد رأى نابليون الثالث في ذلك الزمن ان
الفرصة مناسبة لتحقيق حلمه ، نظرا لانهاك الولايات المتحدة
الاميركية ، صاحبة مذهب (منرو) المشهور في حرب اهلية
عنيفة بين الشمال والجنوب ، تستنزف دماء شبانها وشيبيها .

ولد مكسيميليان فنانا ، محبا للطبيعة والماء . وهو الولد
الثاني لاييه ، وكانت وراثة الملك حق الابن الاكبر ، لذلك حكم
على مكسيميليان ان يبقى طوال الحياة عاطلا عن العمل ، سجين
مجد اسرته ، رهين ثروته الطائلة . والحقيقة ان مكسيميليان كان
يعيش شاعرا ، كانه في حلم دائم ، ينقاد الى الاحداث ، كما ينقاد
الشرع للريح ، وكان عاجزا عن بذل ذلك المجهود الذي يتطلبه
التعمق بالامور ، قليل الاستعداد لتحمل ثقل الفكر والحياة ،

فاراد ان يجد مايليه عن الهواجس التي تثيرها البطالة في النفس،
فقام بتشييد قصر له فخم ، فوق صخرة شامخة على ضفاف بحر
الادرياتيك ، بالقرب من مدينة (تريستا) سماه (ميرما) واحاطه
بحدائق جمع فيها ماندر من النبات ، وما عز اتناجه من الشجر ،
ولكنه مالبث ان ملء الزهر ، والقصر ، وعينه اخوه اميرالا على
البحر ، فمل البحر ، وعاد الى (ميرما) لجمع الورود ، وتصنيفها
واطلاق الالقب عليها والاسماء ، حتى تزوج من (شارلوت) ،
وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من سنه .

وعندما اقترح نابليون على مكسيميليان ان يكون امبراطورا
على المكسيك ، تردد ، وكان تارة يقبل ، وتارة يرفض ، وتارة
يتحسس ، وتارة يتلكأ ، ويستتكمف ، واستطاع نابليون اخير ان
يقنعه بالقبول ، بعد ان اصر عليه ، ووعده بالمساعدات المالية
والعسكرية والسياسية ، وضمن له العرش ، نتيجة لاستفتاء
مزيف ، ولما خرج مكسيميليان من مقابلته هذه لنابليون . قال
نابليون لاحد المقربين منه :

— لو كنت محل مكسيميليان لكنت رفضت ...

وكتبت شارلوت الى والدها كتابا جاء فيه انها وزوجها رضيا
بالتاج ، لكي يجدا عملا لمكسيميليان ...

وركب البحر ، غارقا في خضم من الخواطر والاماني ، وعقد
النية على انشاء امبراطورية مثالية في المكسيك ، تكون قدوة
للممالك الاوربية ، وتقوم على اسس ثابتة من العدل ،

والديمقراطية ، والازدهار والسلم •• كان يقول في نفسه انه سيحتل عرش مكتزوما وكوتيموك ، وينفق ذهب المكسيك وفضته بما يعود بالخير على الهنود ، لرفع مستواهم ، وتحرير العبيد والعمال •• وكان يتساءل بعد ذلك عما اذا كان صحيحا انه اصبح امبراطورا على المكسيك ، وانه في طريقه اليها حقا ، وكان في معظم اوقاته لا يدري بالتأكيد اذا كان في يقظة او كان في حلم •• وكان الزمان يمر ، والوقت يمضي •• وكان مكسيميليان منكباً على تأليف سفر جليل في البروتوكول الذي صمم على تنفيذه في بلاطه الامبراطوري ، ويقع هذا الكتاب في اكثر من ستمائة صحيفة ، وآمن مكسيميليان انه سيصبح اكمل ما صنف في هذا الموضوع •••

ولكن خيبة الامل كانت تتربص بالامبراطور عند وصوله الى ارض المكسيك •• اذ نزل الى مرفأ فيراكروز ، فلم يجد احدا لاستقباله ، وذلك بسبب خطأ في تبليغ نبأ قدومه • فتناول وشرلوت طعام الغذاء وحيدين على الباخرة •

وفي المساء اتت وفود لتحيتهما ، ثم ركبا عربة واتجها نحو العاصمة ، ولكن حالة الطرق كانت سيئة جدا ، فانكسرت دواليب العربة مرارا ، وتوقف الموكب عن السير في الوحل ، والغبار ، والغابات المظلمة •••

ووصلا الى القصر الملكي ، حيث كان فراشهما مليئا بالبرغش

والذباب ، فاضطرا ان يناما على قاعدة (بلياردو) ، حتى انتقلا الى قصر شابولتيك ..

وكان مكسيميليان يعتقد ان الشعب يؤيده تأييدا مطلقا ، ويعتقد ايضا ، لسذاجته وقلة خبرته في مثل هذه الامور ، ان الشعب هو الذي طلبه ليحكم المكسيك ، ولكن الشعب لم يظهر له الا الفتور والجفاء ، رغم طيب عنصره ، وكريم نواياه ، وصادق اخلاصه للشعب ... ذلك لانه كان حاكما فرضه الاجنبي على البلاد ..

وكان سابقا ينظر الى الحكم من بعيد ، فلم يكن ليرى فيه الا محاسنه .. اما الآن ، فقد جابه متاعبه ومشاكله ، من ضائقة اقتصادية ، وضرورة اعادة النظام ، وانطلاق شهوات الناس ، واطماعهم ، وعطشهم الى المزيد من المال ، والجاه ، والعز ، والالتاب ...

وكان المحافظون ينتظرون ان يسلمهم المناصب ، والموارد ، والادارات ، وكان رجال الدين يتوقعون ان يعيد اليهم املاكهم التي صادرها (خوارس) ، فلم يحقق ما عقدت عليه جميع تلك العناصر من آمال ... فحققت عليه ، واشتكت منه ، وهاجمته في الاندية والمجتمعات ، وبدأت تأسف على حكم (خوارس) ، وتطلب من الله انقلابا جديدا ، وثورات ، مهما كانت تبيجتها ... وكان مكسيميليان متفائلا ، لا يرى من الاشياء الا ما يعجبه ان يشاهد ، ولا يصدق من الاقوال الا ما يروق له ان يسمع . وقد

اقام ، خلال الاشهر الستة الاولى من حكمه ، سبعين حفلة غذاء ،
 وعشرين حفلة عشاء ، وستة عشرة حفلة راقصة ، وعشرين حفلة
 استقبال ، واشترى خمرا بمائة الف بيسو ذهبي ، واوصى بسبع
 لوحات زيتية له ينجزها كبار الرسامين ، وسن سبع مجلدات من
 القوانين كانت حبرا على ورق اذ عجز معاونوه عن فهمها وتنفيذها
 وجاء وقت ظن فيه انه مكسيكي الآباء والاجداد ، فاشاد بذكر
 هيدالغو ، زعيم الثورة الاولى ، ولبس السمبريروا (١)
 والشارو (٢) ، واستهلك في بيته كميات كبرى من الفليفلة
 الحمراء ، والخضراء ، والصفراء ، والمحشوة لحما ، والمقلية
 بالسمن ، والمجففة بالزيت ، والمحوالة الى معجون ومرقة ، والمقلية
 في اللحم والدجاج ، واخذ يتنزّه مشيا على الاقدام في زيه
 المكسيكي . . من قصره شابولتيك ، حتى ساحة المدينة الكبرى ،
 التي ربطها بقصره بشارع اضخم من شارع الشانزليزه في
 باريس ، وغازل هندية كانت زوجة بستاني في قصر (كويرنافلكا) .
 وكان ماريشال الجيش الفرنسي (باذين) يحتقره ، ويتخذ
 مايشاء من مقررات دون ان يشاوره ، ويعتبر نفسه قائد قوى
 الفتح ، وممثل الدولة الممولة ، وصاحب الامر والنهي الاعلى ،
 وقد تزوج من مكسيكية ، وبدأ يفكر بالتاج والعرش والوصولجان
 لشخصه ولذريته .

(١) القبعة المكسيكية .

(٢) لباس الخيالة المكسيكيين .

كل ذلك كان يجري ومكسيميليان يعيش في حلم دائم ، ولم تكن له عيناه تقعان الا على البلاد ، والوانها العجيبة ، واقاليمها المنوعة ، وبراكينها المتقبة بالثلوج ، وانوار سمائها الزرقاء ، ولم تكن له آذان الا لعبارات المديح ، والثناء ، والتسييح ، والاجلال ...



أما (خوارس) الرجل الجبار ، الذي ما كان يعرف لئياس ولا للراحة معنى مع الحياة والايان ، والذي كان يرتدي اللباس الاسود في كل فصل وكل مناسبة ، فقد شن حرب عصابات لا هوادة فيها على جيش الغزاة ، وسجل المكاسب تلو المكاسب ، وكانت انباء هذه الانتصارات تصل الى الجماهير فتلهب حماسهم ، واستطاع بعد ذلك ان ينظم جيشا ، وان يسلحه ، وان يتقدم الى الامام بصورة مطردة لاسترجاع الاراضي التي سلبها العدو ..

وبدأ نابليون الثالث يندم على ما فعل .. كانت حرب المكسيك تكلف الشعب الفرنسي اعباء مالية لم يعد قادرا على تحملها ، والولايات المتحدة اتهمت من حربها الاهلية ، وبدأت تضغط على نابليون لكي يسحب جيوشه من المكسيك ، وتهدد بمساعدة مجديه لخوارس ، وبالتدخل الفعلي ، اذا اقتضت الحال ، تدعمها بهذه السياسة ، بريطانيا العظمى واسبانيا .. الرأي العام والبرلمان في فرنسا لا يؤيدان الحملة النابوليونية

الطائشة .. الجيش الفرنسي بالمكسيك اصبح في خطر ، بعد ان انتصر عليه (خوارس) في معارك عديدة ، انتصارا مينا .. فكر نابليون مليا بالامر ، وقرر ماكان منتظرا ان يقرر من تخل عن صديق ، وطعن حليف ، ونكول بوعد ، ونقض لعهد .. او عز نابليون الى المارشال (بازين) بالجلء عن المكسيك ، والقاء مكسيميليان بين يدي القضاء والقدر ...

واوصى نابليون مكسيميليان ان يتنازل عن الحكم ، فقبل التوصية ، ولكن زوجته شالوت اوصته بان يحافظ على الملك ، فقبل ايضا توصيتها ، وبقي قائما على اريكة العرش ...

وذهبت شارلوت الى اوروبا تطلب النجدة .. ارادت ان تقابل نابليون الثالث ، فتهرب وارسل اليها زوجته الامبراطورة اوجيني .. ولكن شارلوت اصرت على الاجتماع بنابليون ، فاجتمع بها ، وشكت له ، فشكا ، وبكت امامه ، فبكى ، ولم يستطع تلبية طلبها ، فامطرته وابلا من الشتائم والتهديدات ، وذهبت لمقابلة البابا بيوس التاسع ، فمنحها بركنه ، ولم يكن ليستطع ان يفعل اكثر من ذلك ... ودامت المقابلة مدة طويلة من الزمن . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، بينما كان البابا يتناول كأسا من الحليب ، اعلمه حاجب ان شارلوت تطلب مقابلته عاجلا ، فلم ير بدا من فتح ابوابه لها .. دخلت عليه ، وحدثته حديثا غير منسجم ، كله شذوذ ، وقالت له ان مؤامرة كبيرة تنظم ضدها ، يشترك فيها زوجها ونابليون ، وان اعداءها

يحاولون قتلها بالسم ، وانه لن يكون في ميسورها ان تأكل الا
من اكل البابا ، واخذت كأس الحليب وشربته .. لقد خبلها
الحزن ، وافسد صوابها ، وخيم الظلام على عقلها وروحها ..
ورفضت ان تخرج من الفاتيكان ، ونامت في المكتبة ، فكانت المرأة
الوحيدة التي تمكنت من قضاء ليلة في القصر الرسولي ..
وسلمت بعد ذلك للاطباء ... وبقيت قيد الحياة ، دون ان
تشفى ، حتى عام ١٩٢٧

وفي الثاني عشر من تشرين الاول عام ١٨٦٦ ، تلقى
مكسيميليان برقية رمزية ، تولى حلها معتمد خاص ، ولكن هذا
المعتمد لم يجرؤ على عرضها على الامبراطور .. فطالبه بها
مكسيميليان ، واطلع عليها . وقد جاء فيها ان الامبراطورة
شارلوت قد اصيبت بداء خثير ، وان الدكتور (ريدل) يتولى
معالجتها .. فسأل مكسيميليان طبيب بلاطه من هو الدكتور
(ريدل) فاجاب :

— هو طبيب الامراض العقلية ، ورئيس مستشفى المجانين ،
ياصاحب الجلالة .

واشار الاصدقاء على مكسيميليان ان يتخلى عن العرش ،
فقبل ان يعمل بمشورتهم ، و اشار عليه الوزراء بان يستأنف
نضاله امبراطورا على المكسيك ، فاستسلم لرأيهم ، وبقي على
العرش ...

وجاء ميعاد رحيل المارشال (بازين) والجيش الفرنسي ...

فافهم المارشال الامبراطور ان مصلحته وسلامته تقضيان بان يغادر المكسيك ، وان يترك هذه البلاد لاهلها ولحكامها الشرعيين . . فوجد مكسيميليان ان هذا الرأي هو الرأي الصائب ، فكتب صك استقالته ووقعه ، وذهب الى مدينة (اوريزا) ، وارسل حوائجه الى مرفأ فيراكروز . . . وبقي مترددا ستة اسابيع ، يؤلف كتابا في علم النبات والحشرات . . واخيرا ودع الجيش الفرنسي ، وظل امبراطورا على المكسيك ، وقد اصبح سلطانه مقتصرا على عدد قليل من المدن ، ولم يعد لديه الا عشرون الف جندي ، معظمهم من الاجانب والمرتزقين ، ضد البطل خوارس والشعب المكسيكي .

لجأ الامبراطور الى مدينة (تيارو) ، وجعل منها عاصمته ، فحاصره فيها الجيش الوطني بقيادة الجنرال (ماريانو اسكويبدو) اعتبارا من اليوم العاشر من آذار ١٨٦٧ ، واستمر الحصار اشهرا ، كان خلالها مكسيميليان يملأ اوقات فراغه باعادة النظر في الكتاب الذي وضعه في شؤون البروتوكول . . . واقترح عليه الجنرال (ماريانو اسكويبدو) ان يسمح له بالهرب ، فرفض مكسيميليان الاقتراح ، واصر على البقاء بجانب اصدقائه ، واعوانه ، وخاصة منهم ، الماني محتال يدعى (سلم سلم) وضابط مكسيكي اسمه (لويس) كان قد سبق له أن اتفق مع بني قومه ضد مكسيميليان .

واخيرا سقطت (كيريتارو) بيد الوطنيين ، والقي القبض على

مكسيميليان ، وعلى رفيقه الجنرال (ميكيل ميرانون) ، والجنرال (توماس ميخيا) ووضعا جميعا في معتقل ، واصر خوارييس على محاكمتهم ، فحكمت المحكمة عليهم جميعا بالاعدام رميا بالرصاص في الرابع عشر من حزيران ، وحدد يوم السادس عشر منه لتنفيذ الحكم ... واثناء وجود مكسيميليان في السجن ، حاول صديقه الامير (سلم سلم) وزوجته ، التي كانت راقصة في سيرك اميركي ، ان ينقذاه ويقال انهما نجحا في الاتصال به ، ولكن مكسيميليان ابي ان يخرج من السجن دون ان يكون (ميرامون) و (ميخيا) معه ، وطلب اليه الامير والاميرة ان يساعدهما في مشروع وضعاه للهرب معه ، وذلك بحلق لحيته ، فاجاب ان لحيته تمثل كرامة اسرة (هانسبرغ) ، وان التضحية بهذه اللحية تعتبر مسا بكرامة تلك الاسرة ...



« هضبة الاجراس » هضبة تطل على المدينة محاطة بالحراج والرياض ، تقع على بعد بضعة كيلو مترا غربي (كيريتارو) ، وقد كان الوصول اليها صعبا جدا في سالف الزمن ، نظرا لوعورة الطرق التي كانت تفصلها عن البلد ، وكان الاقدمون يعتقدون ان السحرة والاقزام الاشرار يقيمون فوقها ، لذلك كانوا يخشون الاقتراب منها ، والذين كانوا يجرون على الوصول اليها ، كانوا يسمعون ليلا اصوات اجراس تتصاعد من الصخور المتناثرة على

قمتها • وقد اختير هذا المكان لتنفيذ حكم الاعدام بمكسيميليان ورفيقه المكسيكيين •

قضى الامبراطور السابق ليلة السادس عشر من حزيران في قراءة كتاب تصوف مشهور ، وقال لرفيقه ، ان « الموت أمر اكثر سهولة مما كان يعتقد » ، وفي الساعة الرابعة صباحا ، دخل عليه الخفير ، واعلمه ان تنفيذ الحكم قد تأجل ثلاثة ايام ، فاجاب مكسيميليان « اني آسف لذلك ، لاني كنت على اتم الاستعداد لكي اموت في هذا اليوم • » وكتب كتابا الى (خوارس) رجا فيه ان يكون دمه هو آخر دم يراق في هذا البلد الطيب ••

وفي الساعة السادسة من صباح التاسع عشر من حزيران ، دقت نواقيس المدينة ، معلنة قرب الحدث المنتظر ، وجاء طبيب الى السجن ، فسلمه مكسيميليان خاتم زواجه وكلفه بان يسلمه الى والدته •• وكان قد بلغ في ذلك العام الخامسة والثلاثين من عمره • ولما شاهد الطبيب يبكي قال له « قضت مشيئة الله بأن أقتل ، وليس لنا ان نعترض عليها » ثم خرج من سجنه وذهب الى سجن رفيقيه وسألهما « هل اتما على اهبة ؟ ••• اما انا فاني جاهز » ، فانحنيا امامه •• وتقل كل من مكسيميليان وميرامون وميخيا على عربة خيل صغيرة ••• وكان الفلاحون يحيونه على الطريق ، مدفوعين الى هذه البادرة بواجب انساني معلوم ، وكان يجب عن التحية بابتسامة حزينة ••

وعند وصوله الى الهضبة ، نزل من العربة ، وصافح أمر

الثلة التي كلفت بتنفيذ الحكم ، فاعتذر هذا الضابط عن اضطراره الى تنفيذ هذه المهمة المؤلمة ، فاجاب مكسيميليان ان الطاعة هي واجب العسكري ، واستأذنه في توزيع بعض الدنانير الذهبية على الجنود الذين سيتولون اطلاق النار عليه ، واخرج بعد ذلك ساعته الذهبية التي تحمل خلفها صورة زوجته شارلوت وقبلها ، واعطاها للكاهن ، وتوسل اليه ان يرسلها اليها - اذا كانت قد استعادت صحتها .. وان يقول لها انه مات وصورتها ماثلة امام عينيه ، وعانق (ميرامون) و (ميخيا) ، والقى نظرة اخيرة على وادي (كيريتارو) الجميل ، وكانت الشمس قد بدأت تصعد ، وتبدد الغيوم في الافق ، وقال :

« في مثل هذا اليوم ، كنت دوما اتمنى ان اموت » ...
واوصى الجنود ، بان يستهدفوا قلبه .. ومضت دقائق غدا بعدها
مكسيميليان ورفيقاه جثا هامدة ..



الأشهر

كان ذلك في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني والغريون في هذا اليوم يحتفلون بعيد الموتى ، ويتوجهون بأفكارهم نحو احبائهم الذين تواروا عنهم وما زالوا متصلين بهم بروابط الذكرى ، وبصلات الروح ، وقيمون الصلوات ، ويوزعون الصدقات ، ابتغاء لرحمة الله على نفوس الغائبين .

وعندما يطوف السائح في شوارع مكسيكو في ذلك اليوم ، يجد محلات باعة الحلوى تغصّ بالجماجم ، انها جماجم من السكر ، شهية المنظر ، ناعمة الطعم ، لطيفة الرسم ، يتسابق على اقتنائها الاطفال والكهول ، ويأكلونها بشهوة ونهم .. الموت لا يخيف احدا في هذا القطر ، انهم يداعبونه ، ويمازحونه ، ويحدثونه حديث كبير لصغير .. انهم يرقصون ، شابا وفتيات ، متقنعين باقنعة الموت ، على الانغام الراقصة الحديثة .. وكثير ما يتحول يوم ذكرى الموتى الى حفلات مرفع (١) يسيل فيها

(١) المرفع ايام معلومة تسبق الصوم الكبير ، ويسمح خلالها بأكل اللحم ، وتقام الحفلات الراقصة والمقنعة .. ويسمي الغريون المرفع « الكرنفال » .. مهرجاناته شهيرة في مدينة نيس الفرنسية وفي البندقية ..

الخير كالسواقي .. وفي جزيرة (خانتسيو) ، على بحيرة (باتسكوارو) ، بولاية (المتشواكان) ، تذهب الاسر الى المقابر ليلا ، وتقع حول القبور ، وتشعل الشموع ، وتصف بالقرب منها الاكاليل ، والحلقات من الزهور ، والمآكل الشهية في اطباقها ، والمشروبات المكسيكية القوية من مزكال ، وبولكي وتكيا (١) في قواريرها ، وبعد ذلك تنتظر ساعات عديدة ، ويقال ان ارواح الاموات تحضر في تلك الفترة الى هذه المأدبة ، وتهبط على الاطباق والقوارير ، وتلتهم ما فيها مما لذ وطاب ، ثم تعود الى مقرها الابدي ... هنا بالمكسيك لا يموت الاموات . نحن نعيش دوما مع الارواح .

— انا اقول ان امواتنا يعيشون فينا .

— هل درست علم الارواح ؟

— بقدر الامكان .

— هل قرأت نظرية « البصمات النفسية » .

— لا !

— ساكلمك عنها ، بمناسبة عيد الاموات ...

— شكرا .

(١) مشروبات مسكرة قوية ، تصنع من اوراق نباتات شائكة وخاصة منها « الصبر » .

— انه لمن مزايا الاشياء انها تحفظ اثر كل ما يصيبها ، فاذا
طرقت الحديد مثلا ، او لمستته ، او وضعت يدك في الماء ، او
ازلت الغبار عن معطفك ، فانك في جميع هذه الاحوال تترك
اثرا معيناً على الحديد ، والماء ، والمعطف وكذلك الطبيعة تسجل
جميع ما يتم عليها من انفعالات مادية .. ولنتنقل الآن الى
الارواح ... نحن نعتقد ان للارواح ، ولجميع ما يصدر عنها من
ظواهر ، اثرا في المادة .. فاذا حدث في مكان معين حادث مفرح
من شأنه أن ينطوي على اثاره غضب ، او عنف ، او يأس ، او
اراقة دماء ، او بعث الم شديد ، فان مجهودا نفسيا كبيرا يبذل
نتيجة لذلك ، وهذا المجهود ، او بالاحرى هذه الطاقة الروحية
التي صرفت لن تتبدد ، بل تتخزن في الاشياء ، على الجدران
والنوافذ ، والارض والسقف ، وفي كل ناحية من ذلك المكان ..
واذا دخله شخص ذو حساسية نفسية خاصة ، او وسيط روحي ،
فان الحادث العنيف الذي سبق وقوعه يظهر امامه بجميع تفاصيله
فيشاهد الفاجعة كما تمت ، ويستطيع ان يصف وجوه ابطالها
واشكالهم كما كانت . وأسوق مثلا على ذلك ، فأقص عليك
قصة جرت لصديقنا الرسام ك .. انت تعرف انه يحب رسم
الفتيات ، وفي ذات يوم ، شاهد ، في احدى المدن الاستوائية
فتاة على جانب عظيم من الجمال ، قاعدة على شرفة منزلها التي
تطل على الشارع ، وكان البيت في الطابق الارضي ، فاستأذن
والدتها بان يأتي كل يوم في الساعة الخامسة مساء ليرسم
الفتاة ، فاذنت له ، وكان كل يوم ، في الموعد المعين ، يحمل ادوات

الرسم والالوان ، ويقترب من الشرفة ، ويشاهد الفتاة في نفس
الوقفة ، والمنظر ، والالبسة التي شاهدها فيها لأول مرة في رسم
خلال نصف ساعة ، مايستطيع ان يرسم منها ، ثم ينصرف الى
سائر شؤونه ، على ان يعود الى العمل في اليوم التالي .. ومضت
ثلاثة اسابيع تمكن الرسام خلالها من انجاز صورة رائعة للفتاة ،
شبيهة بها الى ابعد حد .. واراد ان يهدي هذه الصورة
لصاحبها ، فاخذها وذهب الى والدتها ، فوجدها لابسة الحداد ،
تبكي ، فسألها عن السبب ، فاجابته ان ابنتها قد اتحرت بمسدس
فوق الشرفة ، في اليوم الذي شاهد فيه الفتاة لأول مرة ...

كان هذا الرسام وسيطا ..

ان التغييرات التي احدثها هذا الاتحار المؤلم في الاثير ،
ستبقى منطبعة على الشرفة ، سنين واجيالا عديدة ، وسيظهر
الحادث في كل مناسبة لمن تتمتع نفسه بحاسة تسجيل الذبذبات
الروحية .

اتريد ان اروي لك مثلا آخر ؟

ذهب رجل الى مدينة (.....) لعمل مسلكي ، وحل في
فندق معروف ، حيث اقام في غرفة ذات سريرين ، وقضى ليلته
فيها .

وعندما أشرق الصباح ، ادعى لمدير الفندق انه لم يتمكن من
النوم ، لانه شاهد على السرير شبحي رجل طويل القامة ،
اسمر اللون ، وامرأة نحيفة القد ، شقراء ، وكان الشاب يطوق

بيديه رقبة المرأة ، ويضيق عليها حتى اختنقت ، فاستغرب مدير الفندق القصة ، واجابه ان هذه الغرفة يسكنها كل اسبوع مسافر جديد ، ولم يسبق لاحد أن رأى مثل هذا المشهد ، واعتقد المدير ان النزيل كان سكران قبل ان يذهب الى فراشه ، ولكن لدى التحقيق ثبت ان مثل هذا الحادث قد جرى فعلا منذ اكثر من خمسين سنة في الغرفة ذاتها ، وان القاتل كان طبيبا مشهورا والسيدة التي خنقها كانت زوجته .. وان الاوصاف التي وصف فيها المسافر الرجل والمرأة كانت مطابقة للحقيقة ...

ان مدينتنا حافلة بمثل هذه الذكريات .. واشهرها حادث بطله افرنسيان وقد وقع عام ١٨٧٥ ...

— وكيف كان ذلك ؟

— عندما اخرجنا مكسيميليان من بلادنا ، وطهرناها من فلول الجيش الفرنسي ، لم تضر المكسيك للفرنسيين حقدا ، انما فتحنا لمهاجريهم ابواب بلادنا ، فدخلوها افواجا ، واثروا فيها ، ولم تزل حتى ايامنا هذه المحلات التجارية الكبرى بمكسيكو وبعض الشركات الهامة بيدهم ... كانوا يأتون من جنوب شرقي بلادهم ، وخاصة من مدينة (بارسولونيت) .

وجاء الى مدينتنا افرنسيان كهلان ، لهجتها قريبة من اللهجة الالمانية ، وقد يكونان من مقاطعة الازراس ، وتعاطيا الاعمال الصناعية ، وربحا اموالا طائلة، وتقدما في السن دون ان يتزوجا ، وكانا يسكنان دارا فسيحة ، ذات طابق واحد كائنة في الساحة

الصغرى ، التي سميت بعد ذلك « سويحة الشيوخ » •

وصباح يوم من الايام ، قصدهما الحلاب ، ليقدم اليهما الحليب كالمعتاد ، فوجد ابواب الدار مفتوحة على مصراعها ، والدار ملوثة بالدماء ، وعندما وصل الى غرفة الطعام ، شاهد الرجلين صريعين على الحضيض مقتولين شر قتلة ، بطعنات مديية •• وبجانب دارهما كانت تقيم فتاة ذات سمعة سيئة ، شوهدت مذبوحة ايضا ذبح النعاج •••

وظن في بادىء الامر ، ان سبب القتل هو سرقة الاموال ، ولكن تأكد المحققون ان اموال الرجلين لم تمس ، واستمرت التحريات قائمة على قدم وساق •••

وفي ليلة من ليالي الشتاء ، سمع احد الجيران من دار الفرنسيين التي كانت خالية ، خاوية ، قرقعة ، كأن هنالك زجاجا يتكسر ، واطباقا من النحاس يصطدم بعضها ببعض ، ومقاعد تقع على الارض ، وصورا تهبط من الجدران ، فخرج الرجل الى الساحة ، وشاهد احدى نوافذ الدار مفتوحة وعليها شبحا رجلين هرمين يهددان شبح فتاة واقفة على نافذة الدار المواجهة لدارهما . سمعت القرقعة ، وظهرت الاشباح مرات عديدة حتى تمكن رجال المباحث من اكتشاف اسباب الجريمة ••

والحقيقة ان الرجلين بقيا صديقين يتبادلان اخلص شعور المحبة الى ان تعرفا الى الفتاة الجارة •• اسم الرجلين ارتور ونقولا ، واسم الفتاة ساريتا •

ساريتا احبت نقولا واتخذته رفيقا لها • ثم اعجبها ارتور ،
واتخذته صديقا لها دون علم نقولا •

حب الشيوخ يشبه عواصف الصيف في بحار الجنوب ، انه
لحب قاتل •

اكتشف نقولا الخيانة وعزم على الانتقام •• تظاهر بالسفر ،
واراد ارتور ان يتناول طعام العشاء مع ساريتا في دارها ، ولما
ذهب لزيارتها ، عاد نقولا الى البيت من رحلته المزعومة ، حاملا
مديّة ، وانتظر شريكه وراء الباب ، وعندما رجع ارتور الى بيته ،
بادره بطعنة نجلاء عقبها طعنات اخرى ، فخرقتيلا ، ثم توجه
الى دار ساريتا وقتلها ، واختبأ ساعة من الزمن في غرفته وكانت
هذه المدة كافية لكي يستعيد صوابه ، ويفكر بنتيجة عمله ،
ويندم على ما فات ••• شاهد الدماء تسيل ، فمسه اليأس
وانتحر •••

وبقيت المشاعر الجياشة التي تجلت اثناء الجريمة من حسد ،
وقنوط ، وبغض ، ولؤم ، وندم ، مدونة في هذا المكان ، عيثاراً (١)
يرتسم في مخيلة كل قواف ، يمتاز بقوة الوساطة بين الارواح ••
فهل تؤمن بذلك ؟

— الله اعلم !

(١) العيثر هو الاثر الخفي .

حكم المكسيك الجنرال (بورفيريو دياس) منذ عام ١٨٧٦ حتى عام ١٩١٠ ، أي خلال ٣٤ سنة ، حكما دكتاتوريا مطلقا ، وقد اعتاد ان يجدد انتخابه كل ما انتهت مدة رئاسته ، وان يئد كل محاولة لخلعه بالدم .. بهذا الشكل كان عهده عهد استقرار وهدوء ، ساعد على دخول رؤوس الاموال الاجنبية الى المكسيك ، واستثمارها بما يضمن المزيد من الارباح الى اصحابها .. ومن نتائج سياسة (بورفيريو دياس) اصبحت صناعة البلاد الكبرى ، والخطوط الحديدية ، والنور ، والكهرباء والبتروول ، والمعادن ، ومعظم الاراضي الزراعية واخصبها بيد الشركات الانكليزية ، والاميركية ، والفرنسية ، والهولندية ، وغيرها من الشركات الاوربية الكبرى . كما كان ١٧ من كبار الملاكين يملكون مساحات تقدر بمليونين ونصف المليون من الهكتارات . هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الثورة التي نشبت عام ١٩١٠ تتخذ طابعا داميا ، عنيفا جدا ، وقد بدأت باعلان مبادئ الديمقراطية السياسية ، والمطالبة بتطبيقها ، خاصة فيما يتعلق بضمان حرية الانتخابات وعدم تجديد مدة رئاسة الجمهورية ، ثم تطورت الى نصره قواعد الديمقراطية الاقتصادية ، واخيرا تناولت جميع مظاهر الحياة .. قيل عن ثورة المكسيك انها اولى الثورات الكبرى التي غيرت وجه العالم في هذا الجيل ،

اذ باشر (سن يات سن) عمله التحرري بالصين سنتين تقريبا بعد اندلاع نار المقاومة الشعبية بالمكسيك ، وقد كلفت ثورة المكسيك الشعب اكثر من مليون قتيل ، وادت الى اقرار حق الدولة في السيطرة على الاقتصاد الوطني ، وتوجيهه ، وتأميم المرافق العامة ، والصناعات الكبرى ، واعتباره الامة هي المالكة الوحيدة للبحار الاقليمية والمناجم ، والبحيرات ، والارض ، كما ادت هذه الثورة الى تحرير الفلاح ، والعامل ، وتنظيم شروط العمل بما يأتلف مع كرامة الانسان ، ووضع قانون الاصلاح الزراعي ، والى رفع مستوى الهندي ، والاعتزاز بالقومية المكسيكية الاصيلة التي اصبحت مصدر الشعور الوطني العام في البلاد ، بعد ان كان الهنود مضطهدين .

واجتازت الثورة المكسيكية ثلاث مراحل ، اما المرحلة الاولى ، فيمكن ان تسمى مرحلة المطالبات ، وقد تميزت بخلع (بورفيريو دياس) وتنصيب (ماديرو) رئيسا للجمهورية ، وهو من كبار المزارعين ، وقد تزعم حركة الثورة ، وحاول ان يوجهها توجيهها سياسيا محضا ، دون النظر الى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، وقتل (ماديرو) بيد عميل اتفق مع دولة اجنبية على هذا الاغتيال ، وعلى استلام زمام الحكم بعد (ماديرو) ، وخلال هذه المرحلة ، ظهر على ميادين الثورة (بانشوفيا) ، قائد جيوش الشمال ، واكثر الزعماء بطشا وهولا ، و (اميليانوزاباتا) قائد جيوش الجنوب .

اما المرحلة الثانية ، فكانت المرحلة الدستورية التي اقر خلالها دستور عام ١٩١٧ ، وقد دوت فيه مبادئ الثورة ، وغاياتها ، وكان زعيم البلاد في هذه المرحلة الرئيس الدستوري الاول للثورة (كارنسا) ، واشتهر ايضا الجنرال (الفارو ابريغون) ، آمر القوات الدستورية ، وقد حارب جيشي (بانشوفيا) و (زاباتا) ، واصبح رئيسا للجمهورية ايضا ، وكان من الناحية العسكرية ابرع القواد المكسيكين ، وقد قتله احد المتعصبين .. واتت هذه المرحلة باعادة الامن والاستقرار في عهد الرئيس المحترم (اميليو بورتس خيل) عام ١٩٣٠

اما المرحلة الثالثة ، فهي مرحلة البناء ، ولم تزل مستمرة حتى ايامنا هذه ، اذ يحكم البلاد حاليا حزب واحد ، هو حزب الثورة النظامي ، الذي تعهد بالمضي في تحقيق اهداف الثورة ، والرئيس والوزراء وحكام الولايات هم جميعا من هذا الحزب ، وبلغت هذه المرحلة اوجها ايام رئاسة الجنرال (لازارو كريناس) (١٩٣٦ - ١٩٤٠) . يتولى رئاسة الجمهورية حاليا الرئيس الجليل (لويس ماتيوس) ، حامل رسالة الثورة المكسيكية المجيدة ، الذي تحقق في عهده تأميم الكهرباء ، والنور ، والذي رفع شأن بلاده في القارة الاميركية ، وفي العالم ، بما امتاز به من بعد النظر وسداد الرأي .

ضربة طفل

— دون انطونيو ، قص لي قصة عن (بانشوفيا) ، وقد كنت

صديقا له •

— (بانشوفيا) ، بطل ثورة المكسيك ، الذي خاض ثلاثمائة

معركة ، وربحها ، والذي هزم وحده جيشا من الاعداء ، الرجل

الذي احيا في القرن العشرين ذكرى عنتره ، واساطير البطولة

التي زهت في عصور الفروسية ، والفتوة ، والذي كان يهزأ

بالرصاص ، وبالمدافع ، والرشاشات ، ويتحدى الحكومات ،

والقدر •• اتريد ان اروي لك اسطورة « الصرصور » ؟

— اني اعرفها •• ذلك الصرصور الذي كان يلحق « فرقة

الشمال » ، ويتغذى ، ويشمل من نبات يعطي نوعا مشهورا من

المخدرات •• اعرف الاسطورة •• ولا يعجبني فيها الا القطعة

الموسيقية التي اوحتها ، والتي رقص عليها آباؤنا ، ويرقص عليها

الآن ابناءؤنا •• القطعة التي تسمى (لاکوکارثشیا) •

— اتريد ان اروي لك كيف أَلَّفَ (بانشو) « فرقة

الشمال » ، التي ذاع صيتها في القارة الاميركية كلها ، واتخذ

مدينة (شيواوا) مقرا له بعد ان احتلها ، واحتل (طوريون)

و (زاكاتيكاس) ، ومشى الى العاصمة ؟ .

— كل ذلك معلوم .

— ان ما يعرف عن (بانشوفيا) بصورة عامة هو ماشوهد في السينما ، وخاصة الافلام الاميركية ، ومنها فيلم (والاس بيرى) ، وافلام صديقنا (اسمعيل رودريفز) ذلك بالاضافة الى ما تقصه الكتب الشعبية والروايات التي اختلفت بالمغامرات ، عن تفننه في اعمال البطش ، والضرب ، والظعن ، وولعه بالدماء ، وجهه للنساء .

— اظن انه اصبح من العسير جدا ان يؤتي بشيء جديد عن (بانشوفيا) ، بعد ان صنف عنه اكثر من الف مؤلف ، وبعد ان وضع رئيس اركانه السابق « مارتن لويس غوزمان » مذكراته في الكتاب الذي ترجم الى جميع اللغات تحت عنوان « النسر والحية » . .

— لقد اكتفى المؤلفون في غالب الاحيان بنقل الحوادث التي ظهرت فيها قسوته ، ذكروا مثلا كيف فرض على خمسة مواطنين في بلدة دخلها ، ضريبة ٣٥ الف ييسو يجب ان يدفعها كل واحد منهم خلال ٢٤ ساعة الى صندوق الثورة ، وكان واحدا منهم فقيرا والاربعة الاخرون اغنياء ، فلما ترددوا في دفع المبلغ ، أمر بانشو بقتل الفقير امام الاغنياء ، فخافوا سوء العاقبة ، ودفعوا المال فورا . . ذكروا كيف كان يقتل ، ويذبح ، ويرمي بالرصاص ، ذكر (مارتن لويس كوزمان) ، الذي يعتبر اكبر ناثر مكسيكي

حي ، اعمال القمع التي كان يرتكبها اصحاب (بانشوفيا) ووصف
البساتين التي كان يعلق بكل شجرة من اشجارها انسان مشنوق ،
ووصف الخوف الذي كان يستولي على المدن والقرى عندما كان
يدخلها (بانشوفيا) •• ولم تعرف الثورة قائدا اكثر فتكا بعباد
الله من هذا القائد • نعم ذكروا كل ذلك ، ولكنهم لم يذكروا تلك
الاعمال التي تعتبر مثلا أعلى في التجرد والاخلاص •• اتعلم انه
لما اشتد التناحر بينه وبين الرئيس (كارنسا) على الزعامة ،
وغدت قوى الثورة مهددة بالفناء ، واهدافها السامية على وشك
الانحراف ، عقد مؤتمر في مدينة (اكواس كالينتس) لتحديد
المبادئ التي يحارب من اجلها الشعب ، وبدأ الخبراء يبحثون
ظاهرا هذه المبادئ من النواحي السياسية والاجتماعية
والاقتصادية ، وبنفس الوقت كان كل جانب • يخفي مظامعه
الشخصية وراء هذه الابحاث ، لاحظ ذلك (بانشوفيا) ،
فاختلى بالرئيس (كارنسا) ، وقال له :

« انت تعلم ان السبب الاساسي للمصاعب التي تجتازها
الثورة ، هو التنافس الذي وقع بيني وبينك ، ولنضمن سلامة
العمل الثوري ، اقترح عليك ان نتحر كلانا فورا ، ونخلص
المخلصين المجاهدين منك ومني ، واني في هذه الدقيقة مستعد
لتنفيذ هذا الاقتراح » واشهر بانشو مسدسه ، ووضع على
جبينه ، وتأهب لاطلاق النار •

وتردد (كارنسا) ، ورفض ، وغير الحديث ••

— قرأت ذلك في الكتب •

— اذن اسمع قصة لم تعرفها • قلنا ان الخلاف قد تفاقم بين (بانشوفيل) و (كارنسا) ، وكان يقود جيوش كارنسا قائد بارع ، هو الجنرال (الفارو ابريفون) ، الذي كان يطارده بانشوفيا وانصاره بشجاعة وحكمة •• بانشوفيا كان يحارب الخونة ، ويحارب كارنسا وابريفون ، وقد خلق ازمة مع البريطانيين بقتله مواطنا بريطانيا ، ودخل اراضي الولايات المتحدة في مدينة كولومبس وذبح فيها ستة عشر مواطنا اميركا ، لذلك امر الرئيس ولسن الجنرال (برشنغ) بمطاردة (بانشوفيا) داخل الوطن المكسيكي ، والقاء القبض عليه حيا او ميتا ••

كان (بانشوفيا) يحارب في جميع الجهات ، وقد خصصت حكومة الولايات المتحدة مكافأة كبرى لمن يستطيع قتله او اسره ••• واصيب يوما بجروح في رجله ، فاختم في كهف مدة ثلاثة اشهر ، ثم عاد الى الكفاح وكثيرا ما كان يلجأ الى الجبال ، فتنقصه المؤن والماء ، وحدث انه كان يوما ينزل من جبل ومعه عدد قليل من انصاره ، حين لاحظ فلاحا راكبا على حمار يلحق به ، فامر بمراقبة هذا الفلاح ، وتبين انه يبيع حطبا للتدفئة •• وانتقل بانشو الى قرية مجاورة ، فوجد ايضا هذا الفلاح وراء جيشه ، فراقبه مرة اخرى ، وعرف انه يوزع مالا على بعض العمال •• فالقى (بانشو) القبض عليه ، واستجوبه ، وعلم منه انه قد اوفد من قبل الاعداء لاغتياله •• فأمر باعدامه فورا رميا

بالرصاص ، وارسله مكبلا بالاغلال مع ستة جنود مسلحين لتنفيذ
الاعدام •• سار هذا الموكب الى حقل مجاور ، وبينما كان
(بانشو) ينظر اليه من بعيد ، شعر بضربة على رجله في المحل
الذي سبق واصيب بجراح ••• تألم كثيرا ، والتفت لينقض على
المعتدي ، فوجد امامه طفلا في التاسعة من عمره •• حمله بين
ذراعيه وسأله :

— لماذا اقدمت على هذا العمل ، وانت طفل ؟

— انا ابن الذي ارسلته منذ برهة لكي يقتل رميا بالرصاص •

نزلت دمعة من عين بانشو ، وقال للطفل :

« سر بسرعة وخذ والدك معك ، واذهبا بامان حيث شئتما ،

واحذرا ان اراكما هنا مرة اخرى » •

وكلف بانشو فارسا ان يوقف تنفيذ الحكم ، ويسلم الوالد

الى ابنه ويهديهما حصانه ليتسنى لهما السفر عليه ••



تجري الرياح

(الفريديو سانتايلا) شاب جميل ، نحيف البنية ، طويل القامة ، وضاح المحيا ، يتحلى بجبهة رحبة ، وبخدين نافرين كخدود الهنود ، وبشعر وعينين تلمعان كالنجوم في الليالي المظلمة ، وكالسماء في ليالي القمر ، واسع الانف ، طرفا انفه منبسطان كأنهما جناحا ورقاء •• وقد بلغ العشرين من سنه بعد ان اتم تحصيله الابتدائي ، واتفق ركب الخيل ، والعزف على القيثارة ، والغناء ، وتصليح الآلات التي تستعمل للحاجات اليومية ، كالهاتف ، والمصايح الكهربائية ، والدراجة ، والسيارة ، كان يرتدي رداء مخمليا اسود ، اطرافه مطرزة بخيوط فضية ، وبنظالا عريضا ، مفتوحا من اسفله ، وقبعته من قش واسعة الاطراف وكان يتردد على اماكن اللهو ، والحانات ، وسواحل السباحة •

وكان الفريديو يقيم بدار والده في (اكابولكو) ، التي كانت تعد من اجمل المدن المظلة على البحر وكان ابوه يملك مزرعة قنب واقعة في شبه جزيرة (يوكاتان) ، منفقاً معظم اوقاته فيها • وكان الفريديو يمكث في اكابلكو مع والدته ، فتنه للاوانس ،

والنساء ، وبهجة للاعياد ، محاطا باكاليل الثناء والاعجاب ..
كان يدعى وقيثارته الى جميع السهرات ، فيطرب اصدقاءه برخيم
صوته ، وانيق رقصه الشعبي ، وعلمه بالالحان ...

وجاء يوم ملّ فيه الفريدو حياة اللهو ، والبطالة ، والاقامة
ساعات لا تنتهي على الرمال ، وبرم بكسله ، وضجر من تلك
السعادة السخيفة التي اعدها ابواه له .. كان يقرأ في الصحف
تطورات الثورة الشعبية الكبرى ، التي نشبت في وطنه ، وملاحم
بانشوفيا ، وزاباتا ، وكارنسا ، فيشعر بعزة عميقة تبتهج لها
نفسه ، وبكبرياء حارة يرتاح اليها ضميره .. اصبح يفخر
بشعبه ، ويصرح بذلك للسائحات الاميركيات ، والفرنسيات ،
والالمانيات اللواتي كان يلتقي بهن في اماكن الرقص ، وعلى
ساحل البحر .. كان يعلم ان الثورة حررت العامل ، واعادت
الارض الى الفلاح ، وثرواتها الدفينة الى اصحابها من انباء
الشعب ، وصانت حقوق الانسان المقدسة من عبث العابثين ،
طغاة ، وسراة ، واثرياء ، وكان يتلقى انباء هزائم الاعداء ،
ودعاة الانحلال ، بحماس يزداد يوما فيوما ، فعزم الفريدو على ان
يسهم في النضال الثوري ، وان يشترك في الجهاد ، واذا اقتضى
الامر ، ان يحمل السلاح ، ويخوض المعارك ظافرا ، حاملا لواء
(كارنسا) ، الذي اصبح من المنتظر ان يكون رئيسا للبلاد بعد
اعلان الدستور ، فكتب لوالده بذلك ، فاثنى الوالد على همته
اخلص الثناء ، وشجعه على المضي في ماقرره ، وحدث والدته

بفكرة الالتحاق بالثورة ، فباركت ورضيت باكية ، وقبلت بما
لا يمكن ثنيه عما يريد .

واعد الفريديو عدته ، وحزم حوائجه في عشرين صندوقا
جمع فيها ثيابه الخارجية ، وقمصان السباحة واحذيته ، وربطات
الرقبة ، وآلات الطرب ، ودفاتر الموسيقى ، وزجاجات العطور ،
وسائر ادوات الزينة التي يستعملها الرجال .. وقصد ولاية
(واخاكا) الواقعة جنوب غربي مكسيكو ، حيث كان الجنرال
(اوبريفون) ، قائد جيوش (كارنسا) ، قد اسس مركزا للثورة،
وقابل هنالك رئيس لجنة المتطوعين ، فوجد هذا الرجل فيه
من اخلاص النية ، وصدق العزيمة ، ما جعله يثق به لاول وهلة ،
ولكنه خشي قلة تجاربه في حمل السلاح ، فاسند اليه مهمة على
جانب من الخطورة تتلخص بالقيام بنقل البريد بين المدن والقرى
والمعسكرات في الولاية ، وحض الاهلين على التبرع للجيش ،
وتعيين جماعات من المتبرعين للمحافظة على طرق المواصلات ،
وخطوط المخابرات البرقية ، والتلفونية .. فسر (الفريديو) لهذه
الثقة ، وتعهد ان يقوم بواجبه خير قيام .

ان (واخاكا) ، قاعدة شعب (الزابوتيك) القديم ، ومركز
حضارته ، مازالت في ذلك الزمن على ماكانت عليه ايام العهد
الهندي ، من مواصلات نادرة ، وطرق متهدمة ، وعيش شظف ،
كان الفريديو يسافر على الخيل ، ويجد الفلاحين في كل مكان
فقراء عاجزين عن تقديم أي مساعدة مالية للثوار . ان المسافة

بين مدينة ومدينة ، وبين قرية وقرية تستغرق اياما ، كان يقضيها في القفار ، الاودية المهمله ، يتهدهه الجوع ، والعطش ، والاعداء •

بلغ ذات يوم بلدة صغرى على قمة جبل سامق ، ما اعتاد ان يصل اليه فاتح او سائح ••• وكان سكانها يتكلمون لغتهم القديمة ، ولا يعرفون من الاسبانية النذر اليسير •• فوضع الاهلون تحت تصرفه دارا خاصة ، وفقا لميثاق الثورة ، وتعهدوا بتأمين قوته ، وحاجاته الضرورية ، والمحافظة على سلامته ، حتى اذا انتهت مهمته في البلدة كلفوا دليلا محليا بمرافقته وارشاده الى الطريق المؤدية الى المكان الذي ينوي الذهاب اليه •••

قضى الفريديو يومين في هذه البلدة ، وكانت داره جوسقا مبنيا من اللبن •••

وفي صباح اليوم الثالث ، خرج ليؤدي بعض المهام ، فوجد على باب بيته ثورا من افخر الانواع ، اسود اللون ، جبار القرنين ، عظيم الشدقين ، تطيب مشاهداته في حفلات الصراع العالمية اكثر من الالتقاء به ، حرا طليقا ، في هذا المكان النائي ، فتأمله (الفريديو) طويلا من بعيد ، وخشي ان يعتدي عليه بضربة قرن قاتلة ، اذ سبق له وشهد اكثر من مرة ، اثناء الصراع باكابولكو ، ثيرانا يقرون بطون المصارعين ، ويمشون على رؤوسهم ، ويتركونهم جثا دامية على الارض •

تذكر الفريديو كل ذلك ، عندما سمع الثور يشخر وينفخ

نفخات كهبة الريح ، وخاف على داره من ان يهدمها بنطحه
واحدة ، ويحولها الى انقاض ، وآثر الهرب ، فلما منه ان اصحاب
هذا الحيوان الغالي سيعيدونه قريبا الى حظيرته ، ويرعونه احسن
رعاية ••

ولما رجع مساء الى مقره ، وجد ان الثور لم يزل في مكانه ،
وكذلك كان الامر في صباح اليوم التالي ، وفي ثلاثة اخرى
تلتها ، والغريب ان الثور قد حرم الطعام والشراب ، وبدأت آثار
الجوع والعطش تبدو على جسمه ، وفقدت عيناه الشراسة التي
ترأت له بوادرها عندما شاهده لاول مرة ، واخذتا تناجيان المارة
كأنهما عينا انسان عليل • لم يزل الثور في مكانه رغم مضي
اربعة ايام ، موثقا بجيد طويل ، يسمح له ان يتحرك بسهولة •

وكان (الفريديو) ، في بادىء امره ، غاضبا على الاهلين ، اذ
اعتبر وجود هذا الثور على باب بيته تحديا له ، واستخفافا
بمهمته ، ثم اعتقد بعد ذلك ان هنالك اهمالا من صاحبه ، واخيرا
أشفق على الثور ، ورأى ان يدافع عن حقه المشروع ، وقد مر
بجانبه رجل لا يعرفه ، فاستوقفه وقال له :

— اليس من العار عليكم ان تتركوا هذا الثور الضخم الفخم
يموت جوعا وعطشا ؟

فاجاب :

— كلا ، ياسيدي •• العادة في بلدنا ان تباشر الفتاة بطلب
يد من يعجبها من الشبان ••

— الزواج ؟

— نعم • الفتاة هي التي تختار من تحبه وهي التي تقترح عليه الزواج •• عندما تشاهد الفتاة شابا عزبا، وتعتقد انه يليق بها، تضع ثورا على باب داره •• في بلدنا كل منا يعرف الآخر ، ويستطيع الشاب بسهولة ، عند مشاهدة الثور ، ان يعلم من هي صاحبه •• فاذا قبل ان يتخذها زوجة له ، يسرع في مد الثور بما يسد جوعه ويروي ظمأه ، واذا وجد سببا للرفض اهمل الثور • وبعد انقضاء خمسة ايام ، تأتي صاحبه ، وتفحصه ، فاذا وجدته في حالة جيدة ، تتصل بالشباب لاعداد مراسم الزواج ، واذا كان ضعيفا منهوك القوى ، تأخذه معها ، الى مقره دون أي امتعاض او اسى، وتنتظر مناسبة اخرى للزواج ••

— وجود هذا الثور اذن على باب داري معناه ان هنالك فتاة تحبني وتريد ان تقترن بي ؟

— اجل ، ياسيدي •

— ارجوك ان تفك قيد هذا البريء (يعني الثور) ، وان تقودني واياه بعد ذلك الى الفتاة ، كي اكلهما •
— انك غريب عن البلد ، وسأقوم بخدمتك •

وفي اليوم نفسه ، كان الفريدو يزور دار الفتاة ويتعرف على اسرتها ، الوالد والوالدة ، والعم والخالة والشقيقة الكبرى وزوجها واولادها ، والشقيقة الصغرى وخطيبها ، واخوتها

الشباب ... كانت الفتاة هندية اصيلة اعجب بها الفريدو اشد
الاعجاب ، وظل يجيل نظراته في وجهها وقامتها طوال مدة
الاجتماع .

حدثته الفتاة بواسطة ترجمان من الاسرة ، معذرة له عن
اضطرابها الى اللجوء الى الطريقة المحلية لبثه حبها ، انها لا تتكلم
الالفة قبيلتها الهندية ، ولكنها وعدت ان تتعلم الاسبانية في اقرب
وقت ، وان تألف مع العادات والتقاليد السائدة في البلد الذي
سيقيم فيه زوجها ... واعلمته انها تملك جرتين مليئتين عملة
فضية رنانة ، وعددا من البقر ، والعجال ، والثيران ، وتملك بعض
الخيل العتاق يمكنه ركوبها ، وارضى خصبة يستطيع ان
يستغلها ، اذا كان ملما بشؤون الزراعة ... وازافت مايلي :

— ثروتي جميعها ستصبح لك .. وكل ما اطلب هو ان تسمح
لي بان اعيش بقربك ، واذا اضطررت عملك الى السفر ، فاني
ساتظرك ، واعد لك التوريتا⁽¹⁾ الفاخرة ، واغسل لك ثيابك ،
واكويها ، وضمن لك حياة مستقرة هنيئة .. هل تقبل ؟

— نعم .

هكذا اصبح الفريدو زوجا لهندية لم يشاهدها ولا مرة واحدة
قبل ذلك اليوم الذي اقر فيه الزواج ، وعاش في بلدة لم يكن
يعلم قبل وصوله اليها بوجودها على وجه اليابسة ...

وكان اسعد الازواج ، والاباء ، والجدود ...

(1) هو خبز الدرّة .

أرض وعريته

— اخي غيليرمو ، حدثني عن « اميليانو زاباتا » قائد جيش الجنوب ، وانت مريده ، وشيخ المعجبين به من الشباب •

— قرأت يا اخي انور ، انهم قتلوه •• لقد كان شهيد رسالته ، انه الرجل الذي قال لجنوده : « انه لمن الافضل ، يا اصدقائي المجاهدين ، ان نموت قياما ، من ان نعيش ركعا » ومنذ ان سفك دمه ، أخذ شعراء الشعب يتغنون ببطولته في الملاحم الشعبية التي تسمى (كوريدوس) •• لقد اوحت سيرته العجيبة مئات الالوف من الابيات التي تهتز لبلاغتها الجبال ، وتلتهب السهول ، وتضطرب الغابات ، وتثور البحار •• من الابيات المتفجرة كالتقابل من الابيات التي ما تزال تلقي الرعب في قلوب الانتهازيين والمنحرفين ، وتذك صروح الظلم ، والاستثمار الجائر •

لقد صرع زاباتا برصاص اللؤم ، والظلم والجشع ، وقد مضى على اغتياله اكثر من اربعين عاما وما يزال الهنود يعتبرونه حيا يناضل في صفوفهم وينشد العدل والاخاء ، وسيبقى حاملا السلاح على رأس الشعب حتى يزول من فوق ارض الوطن

الاستغلال الجشع ، وما يجره معه من اذلال لكرامة البشر . .

— نحن نؤمن بأنه لم يمت ، وكثيرا ما نشاهده راكبا حصانه
الادهم ، فوق (السيرا) (١) ، محاطا بهالة من النور ، مستعدا
للاخذ بيد الفلاح في سبيل السؤدد والمجد .

— لقد قال عنه اخوانه انه اكثر وجوه الثورة طهرا ، واقربهم
الى المثل العليا التي اشتعلت من اجلها نيران الثورة .

— وعظم زاباتا بعد وفاته ، حتى تنزه عن قيود البشرية
وحدودها ، وغدا فكرة خالدة ، ماثلة في مراحل جهاده واستشهاده
ومتخذة شكلا ملموسا في أسس المبادئ التي يتطلع اليها
المكسيكي ، وكل انسان على وجه الارض . . لاحظ التماثيل
التي رفعت له ، في كل مدينة من مدن هذا القطر ، تأمل في
الصور التي خطها له رسامنا الكبير (ديغو ريبيرا) على جدران
القصر الوطني ، وقصر وزارة المعارف في العاصمة ، وقصر
كورتيس في مدينة كويرنافاكا ، وانظر الى الرسوم الجدارية التي
شرع بانجازها لملاحم زاباتا الرسام (دافيد الفاروسيكايروس)
على جدران قصر (شابولتيك) ، تجد في جميع تلك الصور ،
رمزا ناطقا للثورة الوطنية باجيحها ، وسعيرها ، وعنفها ،
واهدافها . . زاباتا المدجج بالسلاح ، المتقبح بالسمبريرو العريض
هو رسول الارض . واليه يعود الفضل في انصاف الفلاح ،

(١) أي سلسلة الجبال .

محور الثورة • لقد حدد منهجه بكلمتين بليغتين اتخذهما شعارا له ، وامر بكتابتها على الرايات والبنود والاعلام •• كان شعار (زاباتا) « الارض والحرية » •

عندما نشبت الثورة ، قام (ماديرو) يحارب فكرة تجديد انتخاب الرئيس ، ويطلب منح جميع المواطنين بطاقة ناخب •• ولكن (زاباتا) كان ينظر الى ابعد من ذلك •• كان يعلم ان ٩٥ بالمائة من الذين يعيشون من الزراعة لا يملكون ارضا ، وان معظم اراضي المكسيك كان يتصرف بها الاجانب ، وان شركة اجنبية واحدة ، هي شركة (بالوماس لند) كانت تملك ٧٧٦,٩٣٨ هكتارا •

حمل (زاباتا) السلاح ليعيد الارض الى الصالحين من المواطنين ، الى اولئك الهنود الذين احيوها ، وفلحوها ، وكانوا اصحابها الشرعيين • وقد بسط حكمه على ولاية (موريلس) حيث ولد ، وقسم من ولايات (مكسيكو) ، و (غيريرو) ، و (اخاكا) ، و (بويلا) •• لقد فهم هذا الرجل الذي لم يدرس في المدرسة الا العلم القليل ان الحق الاجتماعي يؤدي الى الدكتاتورية ، والدكتاتورية اذا استمرت تؤدي الى الفوضى ، والفوضى تدك اركان البلاد ، قاوم زاباتا الحق الاجتماعي ، كما قاوم الظلم ، ودعا الى احترام حقوق الانسان ، ولا يزال برنامجه الزراعي حتى الآن برنامج حكومة المكسيك كما صرح بذلك رئيس الجمهورية السيد لويس ماتيوس ••

وكان جيش (زاباتا) وطريقة نضاله ، وحكمه للبلاد الواقعة تحت اشرافه ، وعلاقته بسائر القواد ، يمتاز بطابع خاص • كان جيش (زاباتا) يتألف من الفلاحين ، ومن ابناء القرى الفقراء ، والعمال ، وكان الجيش الوحيد الذي لم يتلق اعانات من الاجانب •

وكان هذا الجيش حين يحتل منطقة ، يتحول فورا المجاهد فيه الى مزارع ، ويتولى المحافظة على الارض والدفاع عنها واستغلالها ••• لم يفكر (زاباتا) بفرض جزية ، او ضريبة على الاهلين •• كان جنوده فقراء ، وكان هو فقيرا ايضا ، ولم يزل حتى الآن كبير معاونيه السيد سوتواي غاما ، اشهر خطباء الثورة ، يعيش بتقشف نظرا لضيق حاله ••

وقد حاول الرئيس (ماديرو) ان يكسب تأييد زاباتا ، فاجتمع به ، واشاد بمزايا الانتخابات الحرة ، فاجابه بانه يفضل ان يمنح الفلاح ارضا على ان يعطي بطاقة ناخب ، فاختلفا ، وصمم (ماديرو) على التخلص من (زاباتا) فلم يفلح ••

واستطاع مغامر اسمه (هويرتا) ان يغتال (ماديرو) ، ويحل محله على سدة الرئاسة ، فاراد بدوره ان يستعطف (زاباتا) ، ووعد برفع مستوى الهنود ، فلم يثق زاباتا بوعدده ، وكان غدارا اذ حاول ان يقتل زاباتا ، ولكن الشعب سبق وقتل هويرتا بعد ان عمت جرائمه الاقاليم •

وتولى رئاسة البلاد الجنرال (كارنسا) ، فسعى لكي ينهي

حالة الحرب الداخلية ، ويدون اهداف الثورة ومبادئها في دستور للحكم يقوم على اساسه نظام للبلاد ، وتطورها ، وعملها السياسي ، واستقرارها ، وطلب الى (زاباتا) ان يرمي سلاحه على ابواب العاصمة ... فاجاب انه اقسم الا ينزع السلاح من ايدي رجاله حتى يتحقق العدل الاجتماعي في البلاد ... فوعد (كارنسا) بوضع حكم خاص بهذا الصدد في النظام الاساسي للدولة ، فكانت المادة ٢٧ المشهورة من دستور ١٩١٧ ، الذي لم يزل نافذا حتى الآن ، وتقضي هذه المادة باعتبار الدولة مالكة اصلا للانهار والبحيرات والبحار الاقليمية ، والمناجم ، والمقالع ، وبتعيين حد اعلى للملكية الزراعية ، وبتوزيع الاراضي على الفلاحين ... احدثت هذه المادة ضجة كبرى في القارة الاميركية ، واوربا الغربية ، لما كانت تنطوي عليه من تهديد للمصالح الاجنبية لذلك لم ينفذ الدستور ، وقد حال ضغط داخلي وخارجي شديد دون تحقيق مبادئه .. فاستأنف زاباتا الكفاح ...

وقرر (كارنسا) ، بعد ان تم انتخابه رئيسا دستوريا للبلاد ، ان يقهر (زاباتا) فأرسل جنوده الى الاراضي الواقعة تحت اشراف زاباتا ليلتفوا المزروعات ، ويقطعوا الاشجار ، ويقضوا على المواشي ، وينهبوا مستودعات المؤن ، او يحرقوها ، وكان من نتيجة ذلك ان اشتد الضيق ، على رجال زاباتا ، وتفاقم هول المجاعة ، وهرب كثير من المجاهدين .. وقد كان لدى زاباتا ٧٠,٠٠٠ مقاتل عام ١٩١٥ ، فنزل هذا العدد الى ١٥٠٠٠ عام ١٩١٨

والى ١٠٠٠٠ عام ١٩١٩ ، ولكن (زاباتا) كان يزداد قوة وعزما كلما تكاثرت عليه المحن ، صرح بأنه سيحارب مع الف جندي او مئة ، او جندي واحد ، بل سيحارب وحده اذا اقتضت الحال ، حتى يحرز الشعب النصر المنشود ،

حينئذ لجأ اعداء زاباتا الى الخيانة ، وكان ذلك في نيسان من عام ١٩١٩ ..

جاء الربيع في بلاد الربيع الدائم ، وكان (زاباتا) في ذلك العام ، قليل الكلام ، كئيب الطلعة ، كأنه كان يتوقع كارثة ... تأخر ظهور الزهر على الاشجار ، وكانت السماء ، طوال الاشهر الثلاثة الاولى من السنة ، مكفهرة ، متلبدة بالغيوم .. استعرض زاباتا مراحل جهاده منذ تسع سنين .. الاميركيون حاولوا من جديد احتلال بلاده عام ١٩١٤ ، ولكنهم خرجوا منها ، (كارنسا) ينظم المؤامرات للبقاء في الحكم ، وقائد قواته الجنرال (بابلوغونزلس) ينكل بالعمال والفلاحين ، ويهاجم انصار (زاباتا) بمزيد من الضراوة والاقدام .. الاصلاح الزراعي لم يدخل في مرحلة التطبيق العملي .. مليون مواطن قتلوا في الثورة ، ولم يحصل الشعب الا على دستور مبادئه جميلة ، ولكنها لم تزل حبرا على ورق . اعباؤه كزعيم تزداد خطورة ، واعوانه يقل عددهم ، انه سيجاهد حتى الموت ، ولكنه لا يستطيع ان ينكر حاجته للجنود .. وبينما كان (زاباتا) يفكر في انجح الطرق لكسب الانصار ، جاءه رسول يطلب مقابلته باسم

الكولونيل (خيسوس غواخردو) احد قواد جيش (كارنسا) •
قال له هذا الرسول ان (غواخردو) قد اختلف مع قائده
العام (بابلوغونزاليس) ، وانه ينوي ان ينضم اليه ، ويريد
مقابلته لهذا الغرض •• وكان مثل هذا التنقل بين جهات الزعماء
مألوفاً في عهد الثورة •• ولكن (زاباتا) رأى ان يتربص ،
ووجد من مصلحته ان يحذر غواخردو كل الحذر ••

فاجاب بانه يقدر شجاعة هذا الكولونيل ، وعزمه على العمل
بجانبه ، الا انه يريد من (غواخردو) ان يعطيه برهاناً على
اخلاصه ، وذلك بشن هجوم حاسم على شراذم من الاعداء كانوا
يعسكرون بقرية خوناكاتيبك ، ويهددون المناطق الخاضعة
لنفوذه •

فاجاب الرسول بان الكولونيل ورجاله الذين يبلغ عددهم
الالف ، هم منذ الآن تحت تصرفه بأسلحتهم ، وذخيرتهم ،
ومؤنهم ، وانهم في القريب العاجل سيهاجمون (خوناكاتيبك)
تلبية لطلبه ••

واعلن (غواخردو) انضمامه الى (زاباتا) ، وشن الغارة على
القرية التي طلب اليه مهاجمتها ، وسحق العدو فيها واحتلالها ،
وامر كي يكسب ثقة زاباتا باعدام جميع الاسرى •

وبقي (زاباتا) واقفاً منه موقف الريبة والشك ، يرفض
الاجتماع به ، وطلب اليه بان يقدم الى المحكمة ضابطاً اسمه

(بارسيناس) وجنوده ، وقد كانوا سابقا يعملون معه ثم انطوا
تحت لواء (غواخردوا) ، وقبل (غواخردو) ان يعاقب الاعوان
الجدد ، واعدم فعلا عددا كبيرا منهم وترك (باسيناس) يهرب ..

واخيرا رأى (زاباتا) ان يعتمد على (غواخردو) ، وان
يلتقي به في مزرعة قريبة من قرية (شينيبكا) وان يذهب اليها
كل من القائدين مع ثلة مسلحة من انصاره ، وبعد ذلك ، يختلي
القائدان في قاعة خاصة ، ويتذاكران ..

وجمع زاباتا اركان حربه ، واخبرهم بما قرر .. ولكن
مساعدي (زاباتا) لم يظهروا أي تحمس لهذه الفكرة ، انما
اعربوا عن مخاوف عديدة ، وقالوا بانهم لا يتقون بغواخردو ، ولا
بكلامه ، وانهم يعتقدون ان ما فعله حتى الآن لم يكن الا حيلة
لايقاع زاباتا في كمين ، ونصحوا (زاباتا) بالا يذهب الى
الاجتماع ، او على الاقل بان يوفد اليه من يمثله ..

اصر زاباتا على الذهاب .

وسكت الجميع لانهم اعتادوا الطاعة . وفي صباح اليوم
التالي توجه (زاباتا) الى المزرعة راكبا جواده ، ومعه عشرة من
جنوده .. ولما وصلوا الى ضواحيها ، توقفوا عن السير ، وشرعوا
يفحصون الاراضي المجاورة ، فلم يجدوا فيها ما يوجب التردد ،
واستأنفوا تقدمهم نحو البناية الواقعة وسط المزرعة حيث سيتم
الاجتماع .. كانت البناية واسعة ، وكان الدخول اليها من باب

حديدي ، اجتازه زاباتا ، ووجد نفسه امام ممر طويل اصطف جنود (غواخردو) على جانبيه ، وادوا التحية العسكرية ببنادقهم وباحترام فائق ... فرد التحية بيده ، ولما وصل الى منتصف الطريق ، صوبوا فجأة بنادقهم عليه وارادوه قتيلا ..

— ما هي المكافأة التي نالها (غواخردو) •

— المكافأة التي ينالها كل خائن .. لقد امر (كارنسا) بشنقه بعد اشهر قليلة لخلاف وقع بين الرجلين .. وبعد ذلك قتل كارنسا .. وحل محله الجنرال ابريغون •

وقتل الجنرال ابريغون ، وحل محله (الياس كييس) ، وذهب (كييس) ، وحل محله السيد (اميليو بورتس خيل) ، الذي اعاد السلم والاستقرار الى البلاد •

وستبقى ذكرى (زاباتا) خالدة على مرّ الاجيال •



رؤيا الفتاة الهندية

نشرت (١) الصحف المكسيكية في ٣٠ ايار ١٩٦٠ نبأ مفاده ان ابناء احدى المدن المكسيكية ارادوا ان يكرموا الجنرال (لازارد كرديناس) بتشبيد تمثال له يوضع في ساحة مدينتهم ، واستطاع هذا الرجل ، خلال مدة رئاسته ١٩٣٤ - ١٩٤٠ ، ان يقضي على الاستغلال والانحلال ، والانحراف ، وعلى الحقد الاجتماعي ، وسيطرة الاجانب على مرافق البلاد ، وقد اعاد الجنرال للمواطن الهندي شعوره بالكرامة ، والمجد ، وايمانه بحقه ، ورفع اجور العمال والمستخدمين أتى كانوا يعملون ، ونظم نقاباتهم وايدها ، وحررها ممن كانوا يستثمرونها ، وجعل منها اداة للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعي ، الذي نصره في كل مناسبة ، والجنرال كرديناس هو الرئيس الذي وزع ١٨,٣٥٢,٢٧٥

(١) نحن مدينون بموضوع هذه الاسطورة الى الجنرال الاديب المؤرخ روبين غارسيا ، وقد وردت في كتابه القيم : « قصص الثورة » ، صحيفة ١٥٥ ، تحت عنوان « شبح الجنرال كرديناس » وقد تفضل واهدانا هذا الكتاب وسمح لنا ان نتصرف بما جاء فيه من روايات كما نشاء ، فللجنرال الفاضل اخلص شكرنا ، وتقديرنا .

هكتارا من الاراضي الزراعية على ١,٠٢٠,٥٩٤ فلاح ، أي مايفوق
بكثير ضعف ماوزعه جميع رؤساء الدولة المكسيكية مجتمعين
منذ صدور دستور ١٩١٧ حتى تاريخ استلام الجنرال مهام رئاسة
الجمهورية ، وهو الذي أمم الخطوط الحديدية وكانت بيد
الاجانب ، وامم البترول المكسيكي وكان ملكا لشركات عالمية
جبارة ، فوجه بذلك اولى الضربات الكبرى للاستعمار الاقتصادي
في المكسيك ، وفي اميركا اللاتينية وهو الذي كان ينشئ كل
عام اكثر من الفمى مدرسة ابتدائية رغم طاقة الموازنة المحددة في
ذلك الزمن ، والذي اعطى لمشروعات الري ، واحياء الاراضي ،
والمزارع التعاونية ، توسعا لم تعرف له بلاده مثيلا .

لهذا كله اراد ابناء تلك المدينة ان يشيدوا تمثالا للجنرال ،
فشيده ، ولما علم الجنرال ذلك قال لهم :

« لا يجوز لكم ان تكرموني قبل ان يصدر التاريخ حكمه
بشأني ، فانتظروا اولاً ان يقول كلمته في عملي ، وانه لا يقول
كلمته في رجل دولة الا بعد وفاته » .

وذهب اصدقاء الجنرال الى تلك المدينة ، ورفعوا تمثاله من
مكانه ، ووضعوا محله تمثالا (لهيدالغو) ابي الوطن المكسيكي ،
هدية من كارديناس الى اهالي البلدة التي ارادت ان تكرمه
بتشييد تمثال له .

اوصى الجنرال مواطنيه بان يترثوا لكي يفسحوا للتاريخ

المجال لان يبدي رأيا عادلا في عمله السياسي ، ولكنه لم يستطع ان يمنع اسطوره من ان تنشأ ، وتنمو ، وتعم الاقطار ، وقد اسهم في اذاعتها ونشرها خصومه اكثر من مواطنيه ، وخاصة منهم الانكلواميريكيون ، الذين امم مصالح مواطنيهم الكبرى في المكسيك ، من دبلوماسيين ، كدانيلز الذي كان سفيرا للولايات المتحدة في عهد كريناس ، ومؤرخين كبار كريس ، وثومبسون ، وتاننوم ، وصحفيين كترمنده ، وجون غوتر .

بدأت اسطورة الجنرال تنتشر اثر انحراف الثورة ، وظهور قواد نقاييين يلعبون بالملايين ، وبرلمانيين قداماء يدبرون الحانات ودور القمار ، وكتاب توجههم مصالح الاستعمار وامواله تحت ستار الوطنية، ومجاهدين ملكوا المصانع والقصور نهبا من الشعب او رشوة من الاجانب ، ومناضلين يتاجرون باسمى المبادئ ، واجل القيم القومية ... اختاروا جميعا مدينة (كوزانافاكا) السياحية ليشيدوا فيها قصورهم المنيفة ، في شارع كان اسمه - وبالغرابة المصادفة - شارع « علي بابا والاربعين لصا » . لقد رسمهم جميعا الرسام (اورسكو) (١) على جدران قصر

(١) هو خوسي كليمنتي اوروسكو ، اعظم رسام انجبتة المكسيك منذ الفتح الاسباني ، ولد في ولاية (خاليسكو) عام ١٨٨٣ وتوفي عام ١٩٤٩ ، يقارنه النقاد المكسيكيون بميجلنجلو ، وقد اشتهر بقوة في التعبير ، وعنف في الالوان وتهكم ضار في البيان . نشرنا في محل آخر الرسمين اللذين اشرنا اليهما في هذه الصحيفة .

الحكومة في مدينة (وادي الحجارة) بقوة تقشع لها الابدان ،
 رسم (اورسكو) في مدينة (وادي الحجارة) ما سماه « الثوار
 المليونيريون » وامامهم يقف الشعب ، هائجا ، جائعا ، عريانا ،
 جريحا ، مكشرا عن انايه ، لفرط يأسه ، رافعا يديه ، مغلقا كفيه ،
 مكفهر الجسم ، يثور عليهم ليحطمهم ، وبجانبه ألسنة من النار
 تندلع على اولئك المنافقين لتحرقهم . ورسم (اورسكو) ايضا
 كيف ضرب بعض زعماء الثورة غشاوة على بصر الشعب ، وعقله ،
 وروحه ، ليستغلوا هذه الثورة لمصالحهم ، وليثروا من ورائها ،
 وذلك بلوحة رمزية معروفة يراها الطلاب كل يوم على جدران
 المدرسة الاعدادية بمكسيكو ، وعرفت هذه اللوحة بعنوان
 « الثالث » ويضم هذا الثالث مناظلا غطى رأسه بعلم الثورة
 ليحرم نعمة النظر ، وسلم بنديقة ، ليطلق منها النار الى حيث
 لا يدري ، وقد وقف على يمينه عامل بترت يداه ، واقتلعت عيناه ،
 وعلى شماله فلاح خبا وجهه بيديه لكي لا يرى ما يجري حوله ،
 وما يكتنف قضيته المقدسة من خداع .

عندما استلم الجنرال كريناس مقاليد الحكم ، كان قد مضى
 على قيام الثورة ٢٤ سنة ، وكانت الارض لم تزل بيد كبار
 الملاكين ، والثروات التي انطوت عليها بطونها بيد الاجانب ،
 فقام كريناس بتحقيق المبادئ التي استشهد من اجلها الثوار . .
 ففضى على نشاط المتشائمين ، وهزم الانهزاميين ، وحطم ابواق
 النقد العقيم ، وبذلك بدأت اسطورته . .

كان ايام شبابه عاملا في احدى دور الطباعة ، ثم التحق بالثورة ، جنديا بسيطا ، وترفع بعد سنين من الجهاد الى رتبة لواء ، واسندت اليه قيادة منطقة « تمبيكو » ، التي كانت اهم مركز لانتاج النفط ، وجاء يوما ، احد مديري شركات البترول ، حاملا بيده غلافا فيه مبلغ ضخيم من الدنانير ، وقال له :

« لقد اعتادت الشركات ان تدفع مثل هذا المبلغ سنويا الى آمر الموقع لقاء حراسة البترول » .

فاجابه كرديناس :

« ان البترول، سنحافظ عليه ، لانه ملك الشعب المكسيكي » .
وطلب اليه ان يترك ماله في جيبه وقام بوداعه حتى باب غرفته ..

ومنذ ذلك التاريخ ، اخذت الشركات الاجنبية تقاوم هذا القائد ، واخذ القائد يسمو حتى توصل الى منصب رئاسة الجمهورية ، وكان قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره ..

سر الرجل هو انه اعتمد على الحدس ، اكثر من اعتماده على الاستقراء والاستنتاج ، فلم يخطئ في احكامه وقد استمد قوته من حبه للشعب ، فلم يخيب الشعب امله وكان حبه للشعب عجيبي عميقا ، كانت حياة الهندي حياته ، وكان يشعر بالعميق في جسمه ، عندما يعلم بان احد ابناء الشعب يتألم ، وكان يشعر بالجوع فعلا ، اذا قيل له ان هنالك عاملا او فلاحا او فقيرا

جائعا .. يدرك مسبقا حاجات شعبه فيتداركها ، ويؤمن ايمانا راسخا كالطود بحقوق شعبه ، فيؤمنها كاملة ، قبل ان يتولى احد المطالبة بها ، وكان حب الهندي لكرديناس عجيبا وعميقا ايضا ، كان الهندي يعتقد أن حياته مرتبطة بحياة كارديناس ، وان وجود كارديناس هو ضمان لحرية ، ولعزته ، ولتوفير قوته اليومي . وانه اذا وقع في ضيق ، فليس له الا ان يستنجد به انى كان ، وكان يردد كلما حلت ازمة في بلده ، « ان كارديناس لن يسمح بذلك .. سوف يقضي عليها كارديناس » وكان كل شيء يمس كارديناس انما يمس شعبه .. وعلى هذا الاساس ، اقام في بلاده ، خلال مدة رئاسته ، حكما ديكتاتوريا لم تعرف له المكسيك مثيلا .. واطهر احتراما للحياة البشرية والكرامة والحرية ، لم يكن مألوفا لدى من سبقه في بلده من حكام ... كان يوما مسافرا على خط حديدي ، فأطلقت على القاطرة التي تقله عيارات نارية من احد الجناة ، كان يريد قتله ، واعتقل الجاني ، ولكن كارديناس اوقف القطار ، وعاد الى حيث كان الرجل معتقلا ، واجتمع به ، وسأله لماذا كان يريد قتله ، فلم يجب ، وجعل يبكي .. وامر الجنرال باخلاء سبيله ، حين تبين له ان الرجل مصاب بضعف عقلي .

وفي آخر ايام رئاسته ، حاول احد الرجعيين ان ينظم ثورة ضد الحكومة ، ونجح في اثارة عصيان مسلح ، اشغل السلطات مدة من الزمن ، حتى تمكنت من القاء القبض على العصاة ، ولكن

الجنرال اصدر عفوا خاصا عنهم ، واصبحوا جميعهم مواطنين صالحين ...

كان الجنرال يسمح للصحافة بان تنشر ما تشاء ، وفي ذات يوم ، كتب احد المعارضين مقالا عنيفا جدا ضده ، اتهم فيه شقيقه (داماسو) بالرشوة لحساب كرديناس ، ولم يجد هذا المهول صحيفة تنشر له مقاله ، وقد رفضته الجرائد اليومية ، والمجلات ، ولما علم كرديناس بذلك امر بنشره في اكبر الصحف ... اراد الجنرال ان يثبت لشعبه ، ان هذا الشعب يمكن ان يحكم حكما قويا صالحا ، دون ان يلجأ الحاكم الى الارهاب ، او العنف او الشدة .. وكان يحس في اعماق قلبه بثقة لا حد لها في قومه ، وفي وطنية الشعب ، وسداد رأيه ، وسلامة نيته ، وطيب سريره .

كان اسلوب الجنرال في اداء واجبه فريدا ، وقد عرف عنه انه كان يعمل اكثر من ١٦ ساعة ، بيد انه لم يستطع ان يقيم في عاصمته اكثر من اسبوع .. قضى مدة رئاسته متجولا في البلاد .. فتعرف اليها مدينة مدينة ، وقرية قرية ، وقبيلة قبيلة ، ومؤسسة مؤسسة .. يسافر مع مرافق او مرافقين ، ولا يحمل سلاحا ، ولا يطلب حماية من رجال الامن ، يصل الى المكان المقصود في معظم الاحيان بغتة ، دون ان يعلم السلطات المحلية بقدومه ، يطوف على المزارع والمعامل ، يزور الفلاحين في دورهم ، ويتحدث اليهم بلهجاتهم ، ويسعى لتلبية مطالبهم بما امكن من السرعة . وبلغت منه رغبته في الاطلاع على اماني الشعب للنظر في

تحقيقها الى ان امر دوائر البرق أن تقبل مجانا خلال ساعة معينة من النهار جميع البرقيات التي يرسلها اليه شخصا من العمال والمزارعون والمستخدمون وذوو الدخل المحدود ، لعرض ظلامه ، او قضية لها علاقة بحقوقهم .. وقيل انه لا يوجد في المكسيك مواطن يعرف ارض بلاده ، وابناء شعبه كالجنرال كريناس .. وادت به تجاربه الى القول « ان مفهوم الهندي للحياة يتطلب قبل كل شيء ان تكون له ارض يملكها ويحراثها .. ويؤمن الهندي ان الارض هي الحياة ، ومن لا يملك ارضا يعيش منها هو شبيه بمنفي .. وان ائتلاف الانسان مع بيئته لا يتم بالشكل الامثل لجعل هذا الانسان عنصرا منتجا في مجتمعه ، الا اذا توفرت له الوسائل اللازمة لتملك ارض وفلاحتها » . وعند انتهاء مدة رئاسته عام ١٩٤٠ ، غادر الجنرال الحكم مرتاح الضمير بعد ان حال جميع المساعي التي بذلت لتجديد رئاسته ، وانصرف الى اعمال الزراعة في ولاية (ميتشواكان) التي ولد فيها ..

ومضت سنوات عديدة على تركه الحكم ، قضاها بين مكسيكو العاصمة ومزرعته الواقعة على بحيرة (باسكوارو) ... وقد كان في احدي الامسيات ، يتحدث في داره الى السيدة (اماليا) زوجته ، وابنه (كوتيموك) ، عندما قيل له ان ثلاث فتيات هنديات يرغبن في مقابلته ، وبعد برهة ، دخلن عليه ، بلباسهن الوطني . فتكلمت اكبرهن سنا ، وكانت تبلغ السابعة عشرة من عمرها ... فقالت :

— سيدي الجنرال ، كنت صباح هذا اليوم على الطريق الكبرى المؤدية الى مدينة (يوروابام) (١) عندما شاهدت .. شاهدت .

— ماذا شاهدت يا بنيتي ؟

— شاهدت شبحك ، سيدي الجنرال ..

— وكيف عرفت انه شبحي ؟

— انه شبحك ، سيدي الجنرال .. ومن لا يعرف صورتك ، كانت عيناه خضراوين .

— وماذا كان يعمل شبحي ؟

— كان شبحك على الطريق ، يفتش عن البؤساء ، ليواسيهم ، وعلى الفقراء ليجد لهم عملا ، وعلى المظلومين ليكفل لهم الانصاف ..
شبحك كان في كل مكان ..

— وهل كان الناس يرونه ..

— كلا . انما رآه من كان في حاجة الى مساعدة ، و الى تشجيع او الى تأييد ...

— هل حاولت ان تكلمي هذا الشبح ؟

(١) احدى مدن ولاية (ميتشواكان) .

— كلا ، ياسيدي الجنرال .. انما تأملت فيه طويلا ، فوجدته
شبيها .. شبيها ...

— بأي شيء ؟

— شبيها بارض بلادنا ،

— هل تعلمت القراءة والكتابة ؟

— انا اول فتاة في اسرتي اتعلم القراءة والكتابة ، وذلك
في احدى المدارس العديدة التي انشأت في عهدك .. واود ان
ادخل معهد التربية الاساسية الذي تبرعت بالبنية التي تضمه
الى منظمة اليونسكو .. قلت ، سيدي الجنرال ، اني رأيت
ارضنا ايضا ..

— المكسيك ؟

— نعم المكسيك كلها ، رأيتها كما تثرى في خريطة نافرة ،
ملاى بالضياء ... ثم بدا لي ان ارضنا تكبر وتتوسع ، وتزداد
مساحتها في الافق .. وتمتد الى ماوراء الجبال ، والبراكين ..
حتى تصبح اميركا اللاتينية جمعاء .. وتمتد الى ماوراء البحار ،
والجزر ، حتى تصبح ارضنا اميركا اللاتينية ، وقارتي آسيا
وافريقيا ..

— اميركا اللاتينية ، واسيا ، وافريقيا ، ارض واحدة ؟

— نعم ، سيدي الجنرال ، ارض واحدة ، يجمع بين اجزائها

امل مشترك في عدل نير ، يعم الدنيا ، وايمان مشترك بروابط
اخوة ، قائمة منذ الازل بين البشر ، مهما اختلفت لغاتهم ،
وعاداتهم ، ولباسهم ، ومهما اختلف لون وجوههم ، كما يجمع
بين اجزائها تاريخ حديث متشابه ، بما امتاز به من نضال في
سبيل اسمى القيم ، تلك القيم التي تجعل الحياة ممكنة على
الارض ، وعزيزة على الانسان .

— نعم .

— ورأيت ايضا ، سيدي الجنرال ، اخي الهندي . . انه لم
يعد وحده ، يجابه الظالمين ، لقد كان الى جانبه هنود عديدون ،
بيض ، وسود ، وصفر ، وحمرة ، من جميع القارات ، والقطار ،
والامصار ، والاقاليم ، والملل ، والنحل . كانوا صفوفًا مترابطة ،
عصائب اثرها عصائب ، كتائب تؤيدها كتائب ، جحافل وعساكر
جرارة ، كلهم اخوتي ، الذين يؤمنون بالله ، ويعملون لوجهه ،
ويتطلعون في سعيهم الى الخير ، يسيرون الى الامام ، وتضمحل
على اقدمهم العقبات ، وتتلاشى الحواجز ، والحدود . . . اخوتي
الهنود ، هم في كل بلد ، اصحاب الارض الحقيقيون الذين
احيوها بعرقهم ، وحموها بدمائهم ، الذين اغتصبت ارضهم ،
واضطروا الى حمل السلاح لاستعادة حقهم السليب ، كانوا
جميعا امامي ، يدا واحدة ، وقلبا واحدا ، يتناصرون ، ويترافدون
كل فئة للآخرى ظهيرة ، في سبيلهم الى التحرر ، والى مجتمع
عالمي ، ارحب ، وارحم تزول فيه جميع الاسباب التي تفرق بين
انسان وانسان . . .

رأيهم جميعا يتفقون من رقتهم ، ويحطمون قيود الذل ،
والاستغلال ، والعنصرية ، ويساهمون كراما في بناء السلم على
ضوء التعاون والمحبة ••

شاهدت كل ذلك ، سيدي الجنرال ، بعيني • اني لا اكذب ••
اعتقد انا سائرون نحو انسانية جديدة ، تختلف عن المجتمعات
البائدة في طريق عيشها ، وتقدمها والسنن التي تنتظمها ، وطبيعة
الصلات التي تجمع بين اجزائها ، •• ان التاريخ لن يعيد نفسه ،
انما التاريخ سيتطور ، او بالاحرى سيتحول ، اثنا على ابواب
عهد ليست له أي علاقة بالماضي •• رأيت الاسرة البشرية جمعاء ،
على مائدة مستديرة واحدة ، تنعم بالرفاهة والهناء •••

* * *

الفهرس

صفحة

٣	توطئة
١٠	الشمس الخامسة
٢١	رواح الآلهة
٣٥	الطائر « كو »
٤٤	النسر والحية
٦٥	عندما يقع القدر ...
٨٨	العارف بالسر
٩٥	ربة النهر
١٠٥	عجلة الجحيم
١١٣	تحتنا كنز
١٣٣	باب الحرية الحمراء
١٤٨	مأساة عميل
١٦٣	الاثر
١٧٢	ضربة طفل
١٧٧	تجري الرياح ...
١٨٤	« ارض وحرية »
١٩٣	رؤيا فتاة هندية



نشر وتوزيع

مكتبة أطلس

دمشق